الأماني والمنه في حديث
قبول وورد جنه

لمؤلفه الفقير الى ربه المتعال
محمد عثمان جلال

ولست بناظر الى جانب الغنى ● اذا كانت العلياء في جانب الفقر

obeikandi.com

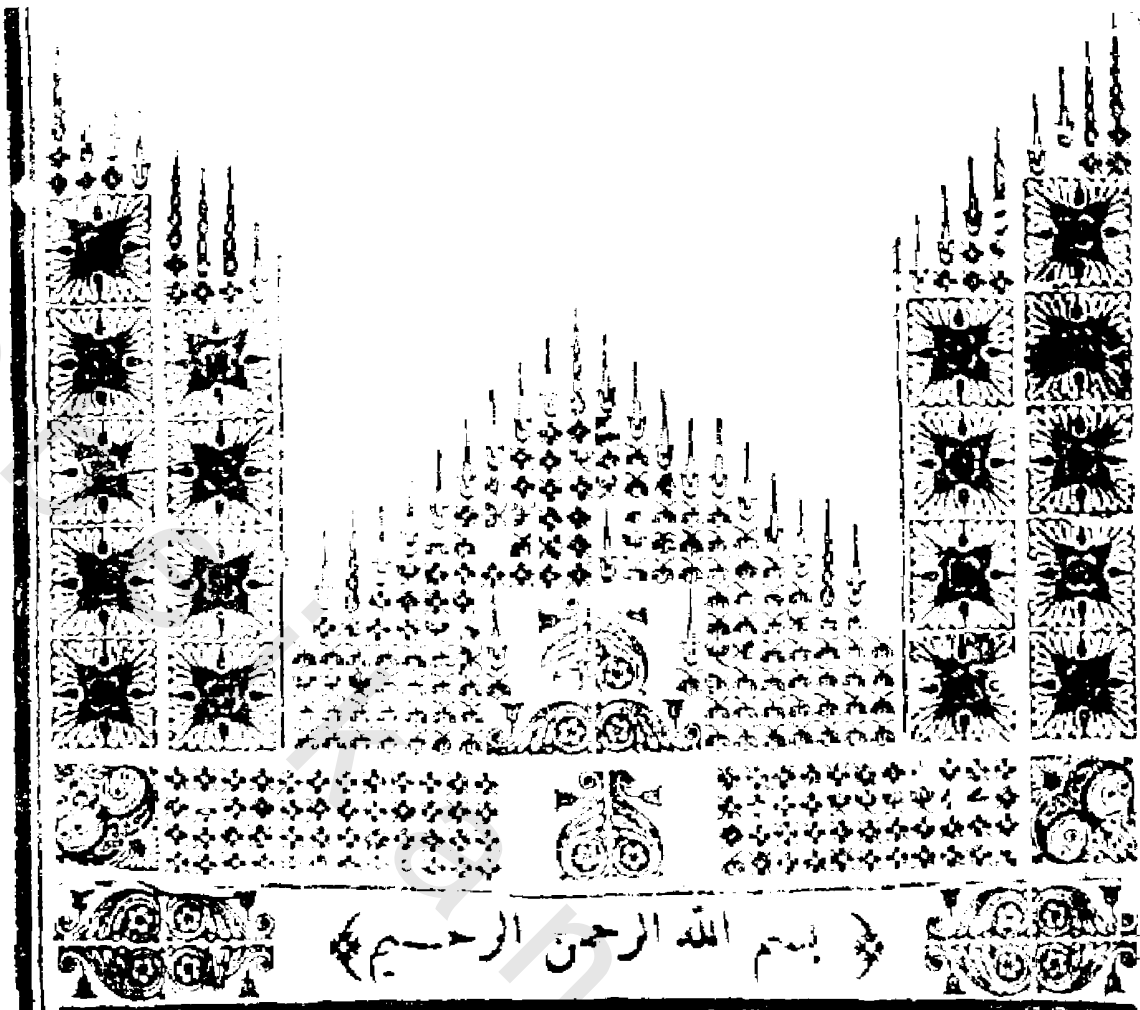

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

حمدا لمن جعل القصص فى كتابه خيرتذكره ونشرذكر من
غبرتأسيا وتفكره الذى ابتلى عباده الاخيار واعد لهم جنات
تجرى من تحتها الانهار جزآء لهم على صبرهم وعلوا لشرف
قدرهم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الامين وعلى
آله وصحبه اجمعين وبعد فلما كانت كتب الادب لازمة
للمدارس الاوليه لتاليف قلوب التلامذة الابيه وكان
اسهلوا ما يدخل عليهم بالحكايات والقصص المليات اخترت
كتابا من اشهر ما فى اللغة الفرنساويه وترجمته باللغة العربيه
وهو فى هذا المعنى قدوه ولمن أراد ان يتأدب اسوه للمحتوى

عليه من الحكم والامثال والمعانى التى هى كالسحر الحلال والماء العذب الزلال فافرغته فى اكواب من الالفاظ المبلوره واخترت له ماسهل من الكلمات النيره لتكون قطوفه دانيه ومحاسنه عن الزينة غانيه واخرجته عن الطباع الافرنجيه وجعلته على عوايد الامة العربيه ومابدلت غير الاسما وقرنتها بما يلائمها من لذيذ المسمى وتركت باقيه على مافيه شعر

حملت خاتم فيه فصا ازرقا * من كثره الاثم الذى لم احصه
لولاه ماعلم العزول فياله * من خاتم نقل الحديث بفصه

فمن تصفحه بعين النقد راى القذى على القذ ومن قاسه بمقياس المقابله وطبق آخره واوله راى فذا قرن بتوأم وعلم ان من ترجمه فقد ترجم ثم كتبته على ورق الجنه وسميته قبول ووردجنه لمقارنة مخرج الاسمين ومطابقته فى لفظ اللفتين واهديته الى صاحب السعاده ومعدن العز والسياده الجامع بين السيف والقلم نجل الخديو الاكرم سعادة افندينا محمد توفيق باشا لازال سنا ئه فى سماء المجد طالعا وبرق ذكائه فى سحاب الادب لامعا ولابرحت ايام الخديو فى جبهة الدهر غررا ووجوه انجاله فى عقد الزمان درر ا

آمين آمين لاارضى بواحدة * حتى تبلغها الفين آمينا

﴿ فوائد الكتاب ﴾

ان لهذا الكتاب فوائد عديده وطرايق مفيده منها معرفة
تخطيط البلدان ووصف الانهار والخلجان ومنها الوقوف
على خواص النباتات ومعرفة سائر انحصرات وتربية
القابل منها للتربيه وجعل البعض منها للتنزه والبعض للتغذيه
ومنها خدمة الاشجار وتاليفها في سائر الاقطار وغرسها
في اوانها وتمكينها مما يناسبها من مكانها ومنها الاطلاع على
سائر الامم واصطلاحات العرب والعجم ولم يخل فط عن
الرياضيات وذكر ما يناسب من الطبيعيات وما يستملح
من الادبيات ودقايق النكات ورقيق الابيات ما ترك من
البديع شيأ الا ذكره ولا معمى في معضل المسائل الا فسره
يعلم الامانة والصدق ويرشد الى العدالة والحق أف من
غرامياته ما اعذبها وايه اصباباته فما اطربها يدير امور العائله
ويصون الحر عن المسئله ويبذل النصيحه لمن يهواها ويظهر
الفضيله لمن يريد ان يراها ان مدح الدنيا حببها للقلوب وان
ذمها اظهر فيها العيوب أو تكلم على الزهد مالت اليه الغواه
وتطلبته الملوك والولاه يضحك ويبكي ويخطب ويحكي ولا يسرد
ذلك الا في سياق القصص ذاكرا لها يحسب المناسبات
والفرص يسمعها المريد بشهيه ويقبلها بصفائيه فتهذب
اخلاقه وتضيء افاقه وتورث قلبه الرأفه ونفسه الكرم والعفه

فن قرأه وكمله ونظر فيه وتامله خرج منه منشرحا اليه
واكثر من الثناء عليه

﴿ قبول ورد جنه ﴾

قال الناقل لهذا الخبر الصحيح والقول الفصيح بينما انا في سياحتي
على كفي تعبي وراحتي واذا بجزيرة من جزائر [illegible] فيممته
فنزلت فيها على الجهة الشرقيه فرأيت نحو سبع [illegible] من هذا
المحل يمينا يقال لها مينا الواس ارضا كانت فلحت لبعض
الناس ورأيت بها اثر عشتين صغيرتين في وسط حوض كائنتين
وكان الحوض محاطا ببعض صخرات طوال ولم يكن لذلك
الحوض الا فتحة واحدة تميل الى الشمال ويرى على العشتين
جمل يسمى بالخرطوم مبني وزرات مركب على الجزيرة ذرفعوا لها
الاشارة علامة على القدوم وكان في سفح الجبل على منحدره
مدينة يقال لها مينا لؤى بوادي عبدوس ثم مسجد الابنوس
وكان هذا المسجد موضوعا في مكان مرتفع من الصحرى يراه
القادم مشرفا بما حوله من المناشي الخضرا وعلى البعد منه
اجمة كبيره ممتده الى اطراف الجزيره ثم على شاطئ البحر
حوض يسمى بالدفين وعلى يساره رأس يسمى رأس المسكين
ويرى الرائي بعد ذلك حركة البحر وسكونه وكثيرا من الجزر
الغير مسكونه ويرى سطح الجزر مساويا لسطح الما ثم رأس

المترمرتفعا الى عنان السما فاذا دخل احد فى فضة الحوض
نظر اشيأ عجيبه وسمع اصداء الجبل تعكس دوى الرياح الواقعه
على الغابات القريبه أو سمع البحر وتلاطمه والموج وتصادمه
وان كان تحت سفح العشرين فلا يرى الا صخورا كالاسوار طالعة
فى اصولها وخلالها الاشجار من علوها بتقطع السحاب عليها
فتتساقط الامطار بين يديها فتثير بالفرح وتنصب اعلام
قوس قزح ثم تجتمع المياه فى كل غدير وتكون منبعا لنهير
يسمى بالتنوير ومن نظر الى محيط تلك البقعه شهد اللطف فى الهوا
والصفا فى الماء والرقة فى الاضواء فيكاد يسمع صوتا للخيل
الطالع على الهضبات ولا ينظر غير سهام سعفه الراقصات وان
كان اليوم صاحيا صار ضوءه ببطن الحوض ضاحيا غير
ان الشمس لا تصل اشعتها اليه الا وقت الزوال وعند ظهورها
لا تشرق الا على رؤس الجبال فتكون كالذهب على حواشى
الارجوان أو كالتاج على رأس السلطان

قال وكنت احب ان احضر فى هذا المكان واتفسح فى تلك الوديان
لاتمتع بالمنظر العجيب واذوق لذة انفرادى بهذا الشئ الغريب
وبينا انا جالس ذات يوم بالقرب من هاتين العشرين انظر
فى رسومهما واتفكر فى امورهما واذا بشيخ سربى وحف بجانبى
وكان على عادة اهل بلده لابسا قباصغيرا وسروالا كبيرا خالعا

نعليه

نعليه ماسكا عصى بين يديه ماشيا مع الانكسار عليه ظاهر
الحشمة والوقار فسلمت عليه فرد علي السلام وخصني بالتحية
والاكرام ثم امعن في النظر ودنا مني وجلس على الارض غير
بعيد عني فلما استأنست منه غاية الاستئناس وعرفت انه من
خيار الناس قلت له يا ابتي اتدري بخبر هذه الاماكن وكيف
كان حال تلك المساكن فقال يا ولدي ان هذه الرسوم وهذه
الاطلال كانت معمورة من قديم الزمان وكان بها عائلتان
عقل الدهر عنهما زمنا فذاقتا كؤس الهنا ولهما قصة تاخذ
بمجامع القلوب وتعطي هدية من المحب الى المحبوب لكنها
هنا في ارض منقطعه خلف بحار متسعه ومن ذا يسأل عن
قصة اناس مجهولين وعن مورد الامم مبعدين الم تعلم ان الناس
لا تسأل الا عن قصص الملوك الاكاسره وسير الرجال الجباره
على انها لا تفيد الا القسوه ولا تصلح ان تكون للمروءة اسوه
فقلت له وحق من يعلم بما في الصدور انك لخبير بالامور فان
كنت تدري بما سالتك عنه فبالله عليك الا ما مكنتني منه فان
الرجل وان اعماه الجهل واصماه المال والاهل لا يزال يرتاح
لقصص الصالحين وخبر ما جرى للشهدا والمتقين فلما راى مني
الانشاط وكثرة التلهف الى الاستماع قربني منه وحضر
تكريمه وقال في الحال ملا تاتي به دونك خذ يا ابن الكرام عني

كان رجل من اهالى الجزائر واسمه الحاج عبد القادر
مكث مدة يتطلب الخدم فى بلده فلم يحصل على قصده وآل
امره الى ان اتى هذه الجزيره بعد كثير من التعب والحيره
وكانت معه شابة نحبه ويحبها وتطلب قربه ويطلب قربها
وكان قد تزوج بها بالخفية من اهلها لانه كان فقيرا واهلها
اغنيا وانت تعلم ان اغلب الاغنيا غبيا فلما اتى بها الى هنا
تركها وسافر بقصد التجاره ليدخر ادخاره ويرجع مع جم من
العبيد ويفلح بهم قطعه من ارض هذا البريد وكان سفره
الى جزيرة مدغشقر ليشترى من هناك السودان ثم يرجع
هنا للاستيطان فحين نزل بها اصابته المنيه ولم يبلغ امنيه ولقد
تصرفت موجوداته بعد موته كما ينصرف كلام المره بعد نفاد
صوته وبقيت امرأته فى هذه الجزيره حبلى لا تملك مالا ولا اهلا
ولا هى تبتغى الازواج غير زوجها الذى كانت تحبه وكان يحبها
فتوجهت مع جاريتها للزراعه بقصد المعيشة لا التجاره والبضاعه
ولم تختر فى هذه البقعة محلا خصبا ولا مكانا مستويا رحبا
لتكون قريبة من نقط التجار بل مالت الى العزلة والاقتصار
فلزمت قوهة الجبل واتخذت هناك بعد محل التعيش بعيدة
وحيده غنية بالعزلة سعيده كالطير يعزل عشه مخفيا ليكون
نسيا منسيا وهذه سجية وغريزه فى ذوى النفوس العزيزه

بالنون

يألفون الاماكن المقفرة ولو كانت موحشة مقفره كانهم
يرون فى العزلة حصونا تدرأ عنهم صروف الزمان وتكلؤهم
من تقلب الحدثان وحسبك أن هدأة الطبيعة يسكن جاشهم
ويؤنس استيحاشهم

ولقد سخر للذهب حبيبة من حنينها وقريبة من غبراهاها
وذلك من رضى من الدنيا باليسير فقد هان عليه العسير
ولقد عز من قنع وذل من طمع وذلك انه كان فى هذا المحل
امرأة من الطيبات وست من المخدرات ولدت فى الغرب
من عائلة من فقراء الفلاحين وكان يحبها شاب من ضباط
الفلاحين فاوعدها ان يتزوج بها ولما قضى وطره منها تركها
ولم يسأل عنها فعزمت على الخروج من بلدها مع عبدها
وولدها وتركت أهلها ودارها وذهبت الى بعيد البلاد توارى
عارها فأنت لتلك الجزيرة واستخدمت فى الذراعة عبدها
سرجان وكان اسم ابنها اقبول واسمها اقمون

وانرجع الى الستبدور فانها مشت ومريم جاريتها وراها
وسلمت قيادها لمن انشأها وبراها وأنت الى هذا المكان
فوجدت فيه اقمون فحصل لها مزيد الفرح وزال عنها
الهم والترح سيما وقد قابلتها بابتسام واكرمتها غاية الاكرام
فحكتا بحدثان بما اصابهما ويحكيان لبعض ما جرى لهما

ثم أشارت لها أقعوان الى عشها وهى تبكى وتقول هى لى ولك فلما رأت منها هذا الاكرام ضمتها وبين عينيها فبانتها وقالت لها ان الله تعالى أراد لنا بالسعاده وكتب لنا الحسنى وزياده حيث الهمك باكرام مثواى والتكرم على بمأوای فلقد رايت منك مالم أره من الاقارب وان كنت بالنسبة لى من الاجانب قال وكان لى معرفة باقحوان منذ جاءت بهذا المكان وكانت لى على بعد الدار بمنزلة الجار مع أنه فى المدن يكون الرجل مجاورا لاهله وأقاربه ويكون جانبهم بجانبه وهم عنه لا يسألون وعليه لا يصبحون ولا يمسون وذلك بخلاف سكان الضواحى وأهل القبائل فى سائر النواحى فانهم على بعد دارهم وشطاط مزارهم يتوددون لبعضهم بالعياده ويسعون بينهم بالاعانة والافاده سيما لما أخذت التجاره تجمع بين النهود وسكان هذه الجزيره صار الجار له على جاره حق الجيره

ولما ان بلغنى ان جارتى انتها رفيقه والهاوى غاية من الاحتياج والضيقه أتيت اليها من باب المطله وعلى سبيل المواساة والتعله فلما وقع بصرى عليها توسمت الخير بين عينيها الا ان الحزن كان عليها ظاهرا لمن يرى وكانت مشرفة على الوضع وصارت تحتاج للمساعدة بالطبع فأشرت عليها ما حيا فى منفعتها واعانة لاولادها من بعدها أن يقتسما الحوض ويزرعانه أولى

من تركه وهجرانه كى لا يأتى أحد الاجانب فيتملك عليه ويجلب
قومه اليه فوكلانى بالقسمة فقسمته بعد ان ضبطت قياسه
وأحكمته وجعلت قسما يبتدأ من الصخرة ذات السحاب المنهمر
والماء المنفجر ممتدا الى القصبة العليا من الهضبة محتويا على
عيون ومجار عذبة وجعلت القسم الثانى فى الجزء الاسفل
يبتدأ من النهير الذى منعه فى القسم الاول ويمتد الى الفجوة التى
نحن عليها الان ثم نصف البحر كبقية الغدران وهو كما ترى موشى
بدروب من المراعى ظريفة محتوية على قطعة ارض لطيفة
الا انها المتأخر أحسن من الاول لانها فى زمن الامطار تكون
مأوى المياه فزاكنه فاذا جاء الصيف يبست وصارت جامدة
بحيث لو لزم الامر قطع محرم لازم استعمال الالة الحادة
والالات الاخرى وبعد ان فرغت من القسمة قلت لهما
لا تخصيص الا بالمساهمة لعدم وقوع نزاع أو مخاصمة فوقع
للست بدورسهمها على القسم الاعلى وأخذت أقحوان القسم
الادنى ورضيت كل منهما بارضها وما قسم الحظ لها الا انهما
أوصيانى أن لا أقسم بينهما السكن قصدا بان يأنسا ببعضهما
وان يتعاونا فى العمل على قضاء حوائجهما لكن لزم لكل عشة
منفصلة وان كانت فى الوضع بالاخرى متصلة وكانت عشة
أقحوان على حدود أرضها فبنيت للست بدور بيتا يقرب منه

في طيها بان قطعت أخشابه من الجبل وجابت خوص البحر على عجل ونصبت قوائمه ورفعت دعائمه فجاء بعون الله فسيحا وسكنا مليحا ثم أصلحت بيت أقحوان وهندمته واحكمته واتمته فانظر كيف فعل الدهر بهما فلم يبق منهما غير رسومهما

شعر

وكأنه لم يبق رسم ديارهم * الا ليذكرني بايام مضت
كانت لنا لينا قصارا بالهنا * فقضى عليها الدهر حكما فانقضت

ومثله

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام

ثم ماتم بناء العشتين الا وجاء الست بدور المخاض فوضعت وأسفر نقابها عن بنت كالشمس اذا طلعت فدعتني أن أعوذها وارقيها وبما شئت اسميها وكنت سميت ابن أقحوان قبول فقالت لي أقحوان اما أن تقول واما أن أقول فقلت لها قولي بالنيابة عني وبما شئت فسمي فسمتها وردجنه ودعت لها بالمني والمنه وقالت جعلها الله من أحسن البنات واطيب النسا المخدرات فاني ما سأبخني الا لما فرطت في عرضي ثم ماتم نقابها ذهب عنها باسها الا وكان قد تم اصلاح المسكنين وحسن انتظام هاتين العشتين وكان تمامهما على يدي فاني بقيت مع مرجان

فيهما

فيهما غاية جهدى وكان مرجان عبد أقحوان فى السن متقدما
صحيح البنية سالما خبيرا بالامور عليما صبورا على العمل مدبما
يطلع كلما رآه من القسمين قابلا للزراعة لينتفع مما يرى فى البقع
النفاعه فكان يبذر فى كل بقعة مايوافقها ويضع فى كل طينه
مايوافقها كالذرة والدخن فى القطع المتوسطة الخصوبة وكالقمح
فى الجهات الكثيرة اللذوبه وكالارز فى محلات الماء والرطوبه
وان رأى سهولة تحت الاحجار يزرع فيها طائفة القرع والخيار
فانه كان يكسوها باوراقه ويضى عليها بنواره وأشراقه وكان
يزرع البطاطس فى الطين اليابس والقصبات السكريه
فى الاراضى القويه وزرع البن على الاكم العاليه فاستغل منه
الحبوب الغاليه وغرس الموز حول العشش فكان ينتفع
منه بشيئين أكله المتراكم وظله الدايم ثم زرع الدخان فى وقاته
قصدا بتسليته وتسلية سادته وكان يذهب الى الجبل فيأتى
بخشب الحريق ويكسر الاحجار ليساوى بها الطريق وكل
ذلك كان يفعله بالمعرفة والهمه لانه كان خالص القلب فى الخدمه
وكان لا يخرج عن طاعة ستة أقحوان فى أى زمان وأى مكان
ولما وضعت الست بدور زوجته بجاريتها فصار يحبها كسته
ويجتهد فى خدمتها وكان يحب زوجته مريم حباجما ويلم لها
المنافع لما وكانت مريم قد ولدت فى جزيرة مداغشقر الكائنة

فى البحر المحيط الاكبر وكانت عند أهلها ذخيرة فعلموها صنائع
كثيره منها صناعة الاسبات وعمل المقاطف والمشنأة
فكانت تذهب للغابة فى كل يوم وتأتى بعيدان الخيزران
وخوص الدوم وتصنع مايدا لها من تلك الاصناف وتتخذها
غاية الاتحاف وكانت ماهرة نظيفه سريعة فى الخدمه حفيفه
تقوم بتحضير الطعام وتربية الدجاج والحمام وكلما رأت شيئا
يزيد عن المؤنه كانت تذهب به الى المدينه فتبيعه مع لامانه
وتعطى ساداتها أثمانه وبالجمله فقد ذكرت لك عدد هاتين
العائلتين ثم أزيدك كلبا ومعزايين لتكون ممن علم بالحال وكفى
الله المؤمنين القتال وأما الصاحبتان الستبدور وأقحوان
فكانتا يغزلان القطن فى اليوم والليله ويصرفان ثمنه
فى لوازم العيله وكانتا لايملكان من اللوازم الاضرورى
الطعام حتى انهما كانتا يمشيان فى بيوتهما حفاة الاقدام وكانتا
لاينتعلان الا يوم الموسم والزينه أو عند احتياج دخولهما
الى المدينه وكانتا لايدخلان المدينه الا فى بندر ولا تلوم على من
اعتذر اذ كان ذلك خوفا من أن يزدرى أحدهما على حقارة
ملبوسهما لانه كان من القماش الازرق العتيق الذى هو عادة
من ملبوس الرقيق وان كان حظهما من الناس الاحتقار
وعدم الاعتناء والاعتبار فكانتا عند العودة الى مساكنهما

يحيان فيهما ما بسرهما وذلك ان مرجان ومريم اذا نظراه ما على
البعد مقبلين اسرعا اليهما على الرأس والعين واذا دخلا
العشتين رأياهما نظيفتين مرتبتين ونظرا فيهما خبرا
من ثمرة شغلهما ورأيا خادمين محبين لهما
ثم لما اضطرتهما النصيبه صارت احدى المرتبتين
حبيبه فاحتاطا سوبه واتحدا في الكلية والجزئيه واشتركا
في المنفعة والفائده جالسة على المائده انما ذاهبة
الفكر فيما مضى وحاضر بالهما ما حكم به القضاء عليهما
عليهما التسليم والرضى وانصرفا من الحالة الصعبه الى
العيشة الراضيه كالذهب اذا لم يجد في الارض وقود اصعد
الى الجو صعودا
وكلما نظرا الاولادهما اللذين هما ثمرة فؤادهما والسبب
في سوء حظهما يزداد كل منهما بالآخر حبا ويأتلفان جسما
وقلبا فكانتا يتلذذان بغسلهما معا وبشركانهما في المهد
مضجعا وطالما تبادلا في الرضاعة بالالبان وتناوبا لهما
بمضغ الطعام بالاسنان حتى كانت الست بدور تقول
لصاحبتها يا أختي كل منا له ولدان وكل من أولادنا له أمان
وكان مثل الولدين على بعضهما حين كانا يتبادلان البان أمهاتهما
كشجرة فيها فرعان نبتت عليهما ثمرتان ان نطعت ثمرة من

فرع وأثبتها فى الآخر على وجه التطعيم أمسكه بتقدير العزيز العليم هذا ولقد تحدث أمهاتهما بزواجهما وهما فى المهد صبايا حفايا عرايا وكان الحديث بزواجهما لمجرد التسليه ومن باب التفاؤل بوقوع الامنيه ولمناسبة ذكر الزواج كانت تبكى أحدهما لما فرطت فى عقده والاخرى تبكى على ان الزواج جاءتها المصيبة من بعده وعلى ان أحدهما ابتغت زوجا أعلامنها قدرا والاخرى لان زوجها كان دونها نسبا ووفرا وكانتا مع ذلك يتركان الهم بالنسيان وباولادهما يتسليان فيقولان فى غد تصير أولادنا أسعد منا حظا وأحسن منا معنى ولفظا اذ يجمعان بين لذة الالفه واستواء المقام بعيدين عن وحوش متمدنى هذه الاياء الذين يفرقون بين الالفين لتفاوتهما فى المقدار واختلاف النسبة والدار

وفى الواقع اذا نظرنا للائتلاف الواقع بين هذين الطفلين تعجبنا غاية العجب وأخذتنا فيهما الحنانة والطرب أذا رقبول اذا بكى او من شئ اشتكى قربوا منه ورد جفنه ابتسم وانطلق وجهه وتقسم وكذلك هى ان تألمت من شئ مجهول كان يستدل عليه ببكا قبول فصارت من لطفها تكتم ما أصابها وتتجلد على ما نابها كى لا يتألم لألمها ولا يتوجع من ضرمها وما جئت مرة هنا الا وأراهما معا يمشيان ويتساندان بالايدى والاحضان

كانهما الفرقدان أوالسماكان وربما دخل الليل وهما
فى المهد على اعتناق الخد على الخد والساق على الساق وكان
مبدأ نطقهما وأول كلمة قالاها لبعضهما كلمة أخى وأختى
لاسيدى وسيتى وهاتان الكلمتان أحلاما تنطق به الاطفال
وألذما تتحدث به النساء والرجال فانوما دفتا كتاب الشفقه
وعنوان رأس الرقه وكانت تربيتهما مما معادا عيا لازدياد المحبة
بينهما والسعى فى قضاء حوايجهما وما أسرع ما اشتدا والى
الخدمة استعدا فاختصت وردجنه بخدمة العشة ونظافتها
والقيام بفرايض العيله من جهة طعامها وكلما رآها أخوها
على هذه الحالة قام بشكرها وقبلها فى ثغرها وأما قبول فكان
طورا مع مرجان فى اصلاح البستان وطورا يذهب معه الى
الغابه فى غاية القوة والصلابه فان رأى فى طريقه زهره لطيفه
اوعش طير على شجره مخيفه صعد عليها بهمته
وأتى به لاخته عند عودته ومتى رأيت أحدهما فاعلم ان الآخر
بجنبه أو منفصلا عنه بقربه حتى انى ذات يوم كنت نازلا من
أعلا الجبل فرأيت وردجنه مقبلة من جهة البستان على عجل
سائرة يذيل ثوبها رأسها موارية من المطر نفسها فظننت
على البعد انها وحدها فجئت لاساعدها فرأيتها ممسكة
بذراع قبول وهو ملتف معها تحت الثوب المبلول وأخذا

بجريان و بشتدان ومن الشمسيه التى اخترعاها يضحكان كانهما عروسان فى زفه أولؤلؤتان فى صدفه

وكان جل اجتهادهما فى أرضا خواطر بعضهما والمعاونة على قضا حوايجهما ولم يتعلما الكتابة ولا القرائه بل نشأ على السا ذجيه والبرائه فلا يتفكران فى أزمان مضت ولا ليال انقضت بل قام بعقولهما الصغيره ان الدنيا قد انحصرت فى هذه الجزيره وان لا لذة فوق لذاتهما ولا شاغل لهما الا حب امهاتهما

شعر

ولم تسل قط لهم دموع * على علوم مابها منفوع
ولم يقطب وجههم مؤدب * أو واعظ معنف معذب
وقط ما احتاج النصح ناصح * ولا لقول قادح أو مادح
فان من من دأبه الامانه * مثلهما لا يقبل الخيانه
من يكن فى أكله بسيطا * مثلهما لا يعرف التخليطا
ومن يك الصدق له غريزه * ونفسه شريفه عزيزه
فانه مفقه مهذب * لم يخطر الزور به والكذب
ومن أطاع والديه حقا * فعنه لا يقال هذا عقا

وهكذا على ذا اللطف تربيا وزمن الطفوليه قضيا كاليوم الجميل يعرف من فلقه والدرع الاصيل يظهر من حلقه ثم

استمر

استمرا على تلك الموافقه حتى دخلا من المرافقه فانهمكا
فى مصالح العيله فى اليوم والليله فمتى أثار الصبح جبين السما
صحت وردجنه وذهبت بجلباب الما ثم تدخل البيت وتصلح ما فى
القدور وتأخذ منها ما يكفى للعصور وفى الشروق تاتى
أخواتها مع ابنها عند الست بدور فيتوضؤن هناك ويصلون ثم
بعد ذلك يفطرون وكان فطورهم أغلب الايام امام الباب
تحت ظل الموز والنبلاب متخذين من المروحة فروشا ومن
أغصان الشجر عروشا سيما شجر الموز الذى ذو اثمر
الهنى يتخذون أوراقه صحافا وكيزانه أكلا واقداحا وهلم
من هذا القبيل البسيط الخالى عن الثقله والتخليط حتى
تكونت أجسام هذين الولدين وتحلت أرواحهما بكل حسن
زين فما بلغت وردجنه اثنتا عشرة سنه الا وافرغت فى قالب
ما أحسنه لا أقول برزت فى شكل البنات بل فى قيافة
السمات ولا أقدر أصفها فى لفظ قصير أحسن مما حكاه
جرير

شعر

لها بشر مثل الحرير ومنطق ● رخيم الحواشى لا هر أولا نذر
وعينان قال الله كونا فكانتا ● فعولان بالالباب ما تفعل الخمر
اذا تكلمت تبسمت ورنت بانفها وترنمت لها شعور كالليل

الحمالك ومغازلة عيون تودى بعقل الناسك وشفاه حمر كالمرجان ووجه أبيض مائه يروى الظمآن وان سكتت تفكرت ونظرت الى السماء وتحيرت فيظهر عليها علامة الزكاء تذكار وانها صاحبة أفكار وأما قبول فانه تشكل باظرف أشكال المرافقة للغلمان وأفرغ فى قالب من أجمل قوالب الانسان وظهرت عليه قباقة الرجال فكان أطول من ورد جنة فى القد والاعتدال وكان أسمر منها لونا وأشم منها عرنينا ولولا اهدابه المسترسله واسهمها المقتلة لعد من أهل الحماسه وأرى العزم والسياسه وكان مع اتصافه بالحركة اذا رأى وردجنه سكن وأقبل عليها وبجانبها ارتكن واذا أكلا معا بقيا صامتين وينظران لبعضهما مهتمين

شعر

كانهما تصويرتان على لوح * أوانهما طيران حلا على دوح
أوانهما أصنام نوبة أفرغا * على قالب حازا الجمال بلا روح
أوانهما نجمان زارا تطاما * لبعضهما خوف الفراق عن الصبح

وفى وصفهما شعر

وألفان طول الدهر لم يتفرقا * كانهما جسمان والروح واحده
بنظرة عين وابتسام تراهما * يدبان فى المعنى على كل فائده
ثمان است بدور لما رأت أن بنتها كبرت وفى ديوان النسا

ظهرت همتها أمرها واشتغل بها فكرها فكانت دائما تتوجع لى منها وفى كل وقت تكلمنى عنها وتقول اذا مت ماذا يكون حالها بعدى ولم يكن عندها من حطام الدنيا شئ ولا عندى وكانت لها خالة من بنات كابر من أغنياء أهل الجزائر غير انها عجوز شهرية بخيلة متزهدة وكانت ابت أن تساعدها بشئ من مالها لانها تزوجت بشاب ليس من رجالها ولما ان رأت الست بدور قد توفيت صدتها وهجرتها وعزمت على أن لا تسأل فيها فى شئ أبدا ولو انها مدت من الفقر يدا لكنها لما صارت أم ولد لم يكن لها غيرها أحد هان عليها السؤال فكتبت اليها فى الحال فقالت أما بعد فهذى رسالتى الى سيدتى وخالتى وانى الآن فى جزيرة دوفراس أشقى بلاء الناس وقد مات بعلى وعدمت بعدك أهلى ولى ابنة بلغت رشدها وطاب نهدها وحالى صار يرثى اليه ولم أجد غيرك من أعول عليه فارحمى البعيد لبعده والمسكين لغلبه ووعده واحسنى بعد حرمان عشر سنين ان رحمة الله قريب من المحسنين

قال فمكث هذا الكتاب مدة لم يظهر له أثر ولم يأت عنه خبر فأرسلت خطابا ثانيا فمكث مكان الاول حتى انقضى العام وتحول فعززت بثالث خطاب فلم يرد عنه جواب ثم لما مضى لذلك نحو من سنتين وردها كم لهذه الجزيرة يقال له أبو ردين فبلغ

الست بدورانه وردلها معه خطاب من عند خالتها فأيقنت باصلاح حالتها وأسرعت الى المدينه ولم تعبأ برثاثة ملبوسها وقلة فلوسها ودخلت عليه فسلمها الكتاب فأخذته باستعجاب وفضت ختامه وقرأت كلامه فاذا به بلغني كتابك الشنيع ولفظه الفظيع المريع فسرني ما أنت عليه من سوء الحال والاحتياج الى السؤال وهذا لاشك جزاؤك على فعلك فأهنيك على موت بعلك فانه كان من رعاع المجرمين وأرذل الفاسقين وان انقطاعك فى هذه الجزيرة خير لك وأحسن من أن تظهري بالخزي بين أهلك فان هذه الجزيره تغني المرء على عجل ان لم يكن مثلك من أهل الكسل ثم ختمت خطابها بمدحها فى نفسها وانها ما ترهبت الا لاجتناب عواقب الزواج المؤدية الى الحمق والهياج مع انها ما منعها فى الحقيقة عن ذلك ولا أحرمها مما هنالك ألا انها لم تعثر بأحد من الامرا ولم يخطبها على ما لها بعض الوزرا وذلك لقبح خلقها وسوء خلقها

ثم لم يكفها ماذكرت وما اقترحت من الكيد وابتكرت حتى وشت للحاكم فى حقها وخاضت له فى عرضها فأول ما دخلت عليه ووقفت بين يديه نظر اليها شزرا وأوسعها نهرا وزجرا وقابلها بالاستكبار وكلمها مع غاية

الاحتقار مع انه ما نظر اليها أحد الا رق لها وبالبر والاحسان
قابلها فكانت كلما افصحت لهذا الحاكم عن حالتها وذكرت له
أمر ابنتها أجابها باطراف الكلام كقوله ... رزى
والسلام ثم صار يباكتها بالحجج الساعية خالتها
وخطأها وذنبها ويمثل تلك الاقوال عنفها وعذبها
فرجعت الى بيتها وهي في غاية الهم والكدر والالم والضجر
ورمت بالحظ على مرتبتها ثم قالت بعد لصاحبتها لقد
تمت الذلة والمسكنة وهذا جزء صبر احدى عشر سنة ثم
أخذت الكتاب وكلهم عندها حاضرون وقرأته ثانيا وهم لها
سامعون فلما خلصت من قراءته وتخلصت من اليم عبارته
قالت لها أقعوان ما السبب لهذه الرذالة ومن أحوجنا لتلك
الحالة أليس الله رب يكفينا بطعمنا ثم يسقينا واذا مرضنا
فهو يشفينا سبحانه لم نجد الا الخير رزقنا وأسبل علينا
ستره فعلى م التأسف والحزن والمقت في البدن انك لمن
الجاهلين وان الله مع الصابرين فبكت الست بدور بكاء
شديدا وأكثرت نواحا وعديدا فضمتها أقحوان لصدرها
وجعلت تتلطف بها وتسكن غيظها وهمها وتزيل ألمها ثم
خنقها البكى فبكت معها وأرسلت عليها أدمعها فأقبلت
عليهما وردجنة تبكي وتقبل أيديهما وتشتكي ثم جاء قبول

يصرخ ويحرك يديه ويرمي بشر الغيظ من عينيه وهو يتمرمر ويتألم من هذا الخطب الذي ألم فلما أحس مرجان ومريم بتلك الرجه وسمعا هذه الضجه أقبلا يتضرعان اليهما ويتوقعان على أرجلهما حتى أسكنا ما قام بهما فقامت الست بدور الى قبول وورد جنه وأمسكتهما والى صدرها ضمتهما وقالت أنتما سبب همي وغمي واحتياجي الى خالي وعمي لكنكما الآن اذهبي وسروري ومنائي وحبوري فيا ليتني من هنا ما خرجت ولم أكن لفرس السؤال أسرجت فمن الخارج أتتني المضره وأما هنا فخولي الهنا والمسره فلم يفهما ما قالت ولا أدركا ما اليه أشارت بل لما طابت نفسها وابتسمت وانشرح صدرها وتكلمت أخذا ابداعيانها ويسليانها ويلاعبانها ورجع الكل لما كانوا عليه من الهنا مذ زال الهم والعنا وكأنها لم تكن الا عاصفة هاجت وخشعت أو سحابة ظهرت ثم تقشعت

ولقد ازداد قبول وورد جنة في الجسم ظرفا وفي الروح رقة ولطفا وكما حسن الله خلقهما فقد حسن خلقهما فاتفق ذات يوم ان خرجت أمهاتهما لبعض الزيارات والطلة على فقراء الجارات واذا بجارية أقبلت تستظل تحت الموز وترجو النجاة والفوز رثة الثياب حافية الاعقاب فلما ان رأت

وردجنة ترامت على قدميها ووقفت تتذلل بين يديها وتقول لها سيدتي ارحميني وبعين العناية انظري بي فاني جارية أسيره وخادمة فقيرة حقيره هربت من سيدي وعذابه وما صدقت ان خرجت من بابه ولي مسيرة شهر وأنا أمشي في الجبال حتى ذقت الويل والوبال وبقيت من الرجوع وعدمت النوم والهجوع وهلكت من العطش والجوع وها أثر الضرب على جسدي وعلامة القيد في رجلي والوثاق في يدي وكنت عزمت على أن أقتل بنفسي في البحر أو أغرق في نهار النهر وما منعني الا بعض الامل وان أرى خيرا من سكان هذا الجبل قال فلما نظرت ورد جنة حالها وسمعت ما جرى لها أخذتها [illegible] وتحركت فيها القوة والفتوة وقدمت لها طعام العيد [illegible] يكن عندها غيره لهذه الليله وقالت لها كلي واشربي وطيبي واطربي فهذا يوم تزيل الكرام ولما ان علمت انها شبعت وبالراحة تمتعت قالت لها يا مسكينه اني أريد أن أتبعك وأذهب الى سيدك معك وأسئله العفو عنك وهو اذا رآك في هذه الحاله يشفق منك لاحاله أتريدين اليه أن ترجعي وأن تكوني معي

شعر

قالت لها ورائك وراكي ٭ وحق من يصنعه براكي

قد سلط الله على العين العمى ان لم تكن بنورها تراكى
قال فنادت وردجنه أخاها قبول وقالت له ماذا تقول أتريد
أن تذهب معنا وهذه الجارية تتبعنا حتى نوصلها الى مالكها
وتطلب منه العفو عنها فقال

شعر

مرينى بما شئت أن تأمرى ● ولو بالقيام الى قيصر
فعلك اذا اتسع الخطب ذرعا ● تجمع كالختم فى خنصرى

قال فسارا والجارية امامهما تقودهما وتمشى بهما بقطعان
الغابات ويخترقان ما انطبق من المفازات وكلما لقيا جبلا
عليه تسلقا أو صخرة بها تعلقا حتى وصلا فى الظهيرة الى
بيت حوله مروعات كثيره وفيه جم غفير من اليسرى
وعدد كثير من الاسافل والامرا مشتغلين بحراثة الارض
وفلاحتها وبذرها على بعد مساحتها وبينهم رجل يابس
الجسم عظيم الجرم طويل القامه عليه هيئة الاماره
والشهامه غائر العينين أسودهما كث الحاجبين مقرونهما
فلما رأته وردجنة عرفته وبالرياسة وسمته فاقبلت عليه
وتقدمت هى وأخوها بين يديه وقالت له وهى منه مستغربه
ومن هيأته مضطربه بالله عليك الاما عفوت عن هذه المسكينه
فان روحها بين يديك رهينه

فكان

فكأن الرجل لما نظر اليهما ورأى حقارة ملبوسهما كاد أن لا يسمع لهما قولا وأن يخرجهما من باب أولى لكنه لما وقع بصره على ورد جنسه وسمع منها الشدة والغنه انحلت عرى صبره وتصاعدت ابخرة كبره وأقبل عليها كل الاقبال ولان لها قلبه ومال وقال فيم جئتنى وعن أى شئ سألتنى فقالت أسألك عن هذه الجارية عفوا وأن تعفو افهو أقرب للتقوى فاقسم بالله انه عرفى عنها اكراما لها وحياء منها فأشارت ورد جنسه الى الجارية أن تقدم على سيدها وأن تمد اليه يدها ثم رجعت بعد ذلك وأخوها معا وهى تمسح عن الفرح أدمعها وسارا يقطعان السهل والوعر الى أن اذن عليهما العصر وهما فى كد وتعب وعطش وسغب وما صدقا ان لقيا فى طريقهما شجره فتظللا تحت فروعها المنتشره وجلسا تحتها برهه على وجه الراحة لا على وجه النزهه فقال لها أخوها وهى فى هذه الحاله وقد رأى أنها هالكة لا محاله ألبس بالله انا تعبنا وان الجوع والعطش قد أضرا بنا فان رأيت أن نرجع الى هذا الرجل ونقابله وفيما تيسر من المأكول نسأله فان لنا يوما بغير افطار وقد كاد أن يمضى النهار فقالت له والله لا يكون ذلك أبدا ولا نسأل فى طعامنا أحدا أما سمعت امى وهى تقول ان سؤال الظالم من الفضول فان من سأل ظالما

مطاعا فقد امتطاهمى فقال لها وكيف نفعل أمالا ونحن لانملك جاها ولامالا يالينتنى فى هذه الغابة أجد ثمرا هنديا أو شجرا لامونيا فنرتوين باصارته ونشبعين من العطش ومرارته فقالت لها الله تعالى وجل جلالا فانه قريب سميع مجيب وماتم قولها الا وسمعا خريرعين فبادرا اليها ورقعا من شدة الظمأ عليها وشربا من مائها الصافى وعذب رضابها الشافى ثم جمعا شيأ من الحشايش يأكلانه فلم يقتنعا ولم يشبعا به فصارا يبحثان عن شئ من الاثمار أو بعض نخيل من ذوات الجمار فرأت ورد جنة نخلة صغيره لها رأس كبيره فهم قبول باقتلاعها فاعيته وأنفدت قوته وأتعبته فأخذ يحرقها فلم يجد نارا وكلف نفسه صبرا فوجد اصطبارا بل تذكران الزنوج اذا أرادت ايقاد النار فى الخشب أخذت عودين يابسين من الحطب وحكتهما معا ففعل ذلك فأولدها ثم جاء بالنار الى جذع النخله فأوقدها ومن أساسها خامدها ومازال يحرق فيها ويقلم فى وقدها حتى وصل الى النخاع وأخرج منه قدر ذراع فأكلا منه وطابت نفسهما ونعما بالهما وانبسط من تلك النعم السارة ومن الجميل الذى صنعاه مع الجارية الفاره ألا انه خطر ببالهما ان أمهما فى انتظارهما فندما وتأسفا وأسبلا دمعهما وكفكفا

وكانت

وكانت وردجنة تذكر اهف الامهات وتنشد هذه الابيات

يا ويح قلبي على نساه ● قد لقبوهم بالامهات
يحملن طول الزمان هما ● على البنينا أو البنات
وكل خير لهن ماض ● وكل ضير لهن آتي
ما تم حظ لهن الا ● بدله الله بالممات

فقال لها قبول وقد أحسن أن يقول

وحق حبي لك يا أختاه ● وما اعترافي وما أتاه
لاترين اليوم امهاتنا ● ولنبيتن معافى بيننا

ثم شرعا يمشيان فتاها عن الطريق وعدما الرفيق فقال قبول لوردجنة لاتخافي من شئ أبدا ولا تحملي هما ولا تنكدا فانا أعرف ان بيتنا جهة الشمال لا يبعد عن ميل الشمس وقت الزوال فامشي بنا على عجل الى هذا الجبل وكان يسمى بجبل الثلاثة أبراز لامتيازه بهم كل الامتياز ثم نزلا على منحدر النهر الاسود وأشرفا على أرض فدفد فاتفق أن تعرض لهما نهر عريض في ممرهما وكان شديد التيار كثير الميل والانحدار واقعا في أكبر أجزاء الجزيره قاطعا في سيره لصخرات كثيره فانزعجت وردجنة من غليانه وشدة هديره وفورانه وما أمكنها أن تمر منه وأعرضت كل الاعراض عنه فحملها قبول على عاتقه وتحفظ عليها بمرافقه وصار يخطي بها زاق الاحجار

مقتصها الشديد الاخطار وهو يقول لها لا تخافي فاني أحسست بالقوة وأنت على اكتافي فوالله لو ان صاحب الجارية الهاربة لم يمكنك مما كنت له طالبة لنهرته رشته منه وعلى وجهه لطمته فقالت له كيف ذلك وهو أكبر منك وقوى عنك فويلي أنا التي أتعبتك والى الشر عرضتك وقربتك وما أصعب فعل الخير وأثقله وأعرضه على الناس وأطوله وهكذا بمثل هذا الكلام كانت تكلمه وترشده الطرق وتعلمه حتى قطع بها النهر على عجل وأراد أن يصعد بها الجبل الا أن قوته لم تساعده ولم تقو على حملها سواعده فأنزلها على الارض وجلس وهو على آخر نفس فقالت له ورد جنه ان النهار قد زال وظل الاشجار قد طال واني قد أشرفت على الهلاك ولا يمكنني أن أذهب واياك فاتركني أنت هنا واذهب وحدك لامهاتنا فتطمئن بك قلوبهم ويأتون معك كلهم فقال أنا لا أتركك أبدا ولست أقصد في نجاتك غيري أحدا حتى لو جن علينا الليل ونحن في تلك الاجمة ومنعتنا من السير الظلمة أوقد من الحطب النار وأحرق نخلة ذات ثمار فنستنير بنارها ونتغذا من ثمارها واصنع لك بيتا من سعفها وفرشا من ليفها

قال فصرفت النظر عن الرواح والتفتت لما في رجليها من الجراح وأخذت تنتعل من ورق الشجر لان قدميها قد

ادماهما

أدماهما الحجر وانها لحب الخير ما انكرت فى فعلها وما بصرت فى عواقب فعلها ولما ان قل توجعها وكثر الى الرواح أظماؤها قامت تستند على أخيها باليمنى وتشكى على عصى يدها اليسرى

ثم صارا على مهل قاصدين طريق الجبل لكنهما لعلو الاشجار وكثافة أوراقها وكثرة انعكافها وانطبانها ضاع منهما منظر الجبل الذى كان اتخذاه دليلا ثم مالت الشمس للغروب قليلا قليلا فحادا عن الدرب الذى كانا اتبعاه وبقيا فى حيرة من ضل وتاه لم يريا فوقهما غير الشجر ولم ينظرا تحت الا الحصى والحجر فأجلس قبول وردجنه وصار كمن أصيب بجنه يجرى من شجرة الى شجره ويطلع علوة وينزل حفره يبحث عن الطريق الذى فقده فاستدل عليه وما وجده ثم صعد على شجرة عاليه فطرفها فيردانيه فلم ير الا رؤس باقى الاشجار وعليها صبغة الشمس فى أواخر النهار ورأى الريح قد سكنت بعد الهبوب كما يحصل ذلك عادة وقت الغروب وانتشر فى الجو السكوت وأقبلت الحيوانات للبيوت فلم يسمع الا رغاء الغزلان ونعيب الغربان فصاح قبول بأعلا صوته مناديا لعل أن يرى أحدا من الصيادين آتيا ولما لم يأت أحد اليه ولم يرد الا صداه عليه نزل من أعلا الشجرة وقد أعياه التعب

وأضناه اليأس والغضب وعزم على المبيت فى هذا المكان وان لم يكن فيه انسان ألا انه لم يجد مأوى ولا حطبا ولا نخيلا ولا خشبا فيئس واشتكى وأتى بنفسه على الارض وبكى فقالت له ورد جنة لا تبكى ولا تأن ولا تشتكى فأنا السبب فى عذابى وعذابك وما اعترى أمهاتنا من غيابى وغيابك وكان قصدى بذلك فعل الخير لا تكلف المشقة فى السير فما أعظم جهلى وأقل عقلى ثم بكت وتوجعت ورفعت يدها الى السما وتضرعت وقالت

شعر

يا من له العزة والدوام * ومن على نبيه السلام
هيى لنا من كل أمر فرجا * وكل هم ومضيق مخرجا

فاثم دعاها الا وطارق لباب الفرج يفتح بصوت كلب ينبح فقال قبول ان هذا الكلب من كلاب الصيادين الذين يأتون ليلا فى البساتين ثم ازداد بعد ذلك تعبه وقرب منهما صدحه فقالت ورد جنة لعله كلبنا ولعلنا بالقرب من دارنا ثم مالبثا ان حضر الكلب عندهما ووقف يتمسح فيهما ويقبل ارجلهما فاندهشا لرؤيته فرحا وانبسطا منه وانشرحا واذا بمرجان صيدهما على أثره يجرى وكان لا يعلم مكانهما ولا يدرى فلما رآهما بكى فرحا وطرب وأخذ فيهما اللعب ويعدان أتفق قال لهما يا أسيادى ان أميكما فى أشد العذاب

على

على بعدكما وحصل لهما مزيد الغم حين رجعا الدار ولم يريا كما وكنت منهما الزيارة احدى الجارات وكانت مريم في المدينة لقضاء بعض الحاجات فلم تعلم أين توجهما وصرت أبحث في كل مكان عنكما ثم جئت ببعض ملبوسكما وأشممته الكلب فقطن لما أشرت اليه وسار وسرت متوكلا عليه صاحبا بين يديه فأتى بي الى النهير الاسود ذي الحمر الجامد فأخبرونا انكما جئتما وكانت جارية معكما وان سيدها منى عنها كرامة لكما لكن وا أسفاه وأى مفر عني منها وقد رأيتها ودنوت منها فاذا هي موثوقة العنق واليدين مكبلة الرجلين فتركتهم وتبعت الكلب أمان وهو يدخل بي من مكان الى مكان الى ان وقف بنهج ضد نخلة رافعه وناره الجوطالعه ثم أتى بي الى هنا وبلغني برؤيا كما المنى ونحن الآن على سفح الجبل الرابع على البعد من منازلنا بأربعة فراسخ فكلا قبلا حتى تدب فيكما العافيه ثم أعطاهما أطعمة كافيه وأعطاهما شراب السكنجبيل وبعض من مربى الزنجبيل

قال فشهدت وردجته على ما أصاب الجارية بعدهما وعلى ملفاته أمهاتهما وأما مرجان فأحضر حطبا قال له الدور من شأنه أنه يحترق وهو أخضر وفعل به فعله فأخرج منه شعله واختار أمره بعد ذلك في الرجوع بهما لان كثرة المشي قد

أودت بأرجلهما وتردد بين أن يتركهما وحدهما ليطلب من يستعين به على نقلهما وبين أن يبيت في تلك الغابة بهما وقال لهما متأسفا حاسر البال كاسفا

مضى زمن كنت فيه قويا * أفوق بعزمي على الفائق
وكنت شديد القوى كالحديد * وأعلا من الجبل الشاهق
اذا ما حملتكما ساعة * كأني بريش على عاتقي

ولقد صرت الآن قليل المعاونة والله لا تخفى عليه خافية أسأله بمنه وكرمه أن يسخر لنا عونا من غامض علمه فانهم دعاه وكل انشاده وأنشأ الاوتفر من العبيد فقدم ووقف عندهم ونظر فعرف وردجنة وقبل وأشار كبيرهم بقول انكما والله من أحب لبيض خلقا وأحسنهم خلقا فقد رأينا كما صيصة هذا اليوم عند شجر الدوم ومعكما جارية من النهير الاسود جاران لها من يدها مقربان لها الى سيدها وطلبتما منه أن يعفو عنها فلا بد أن نحملكما الى داركما ونركما الى أمهاتكما ثم أشار الى من معه من العبيد أن يصنعوا لهما هودجا من الجريد ثم أجلسوهما فيه وحملوه جميعه ومشوا وسعى مرجان امامهم بالشعله فقالت وردجنة لاخيها انظر كيف يسر الله لنا بالخيرات جزاء لما فعلناه من الطيبات قال فوصلوا نصف الليل الى سفح الجبل فنظروا على رؤسه عدة شعل وسمعوا على

البعد

البعد من يقول هل فيكم وردجنة وقبول فصاح الجميع نعم هم بعينهم قد يسر الله بهم ثم انكشف الظلام عن امهاتهم ومريم تحمل شعلة من ورائهم فقالت الستبدور أين كنتم وكيف خلفتمونا ورحتم فانكم مذ غبتم غبنا عن الصواب وبقينا في أشد العذاب

فقالت وردجنة كما في النهر الا ردنشغ في جارية سيدها هناك وكنت أعطيها الفطور لانها كانت أشرفت على الهلاك وقد أتى هذا الرهط بنا وحملونا الى هاهنا فانقضت الستبدور على ابنتها والى صدرها ضمتها فلما أحست بدموعها وشدة أشواقها ولوعها قالت لها كفاك ما قاسيته في هذا اليوم وانك قد أحرمت لذة النوم ثم انها أدخلتها العشة معها وكان قبول يتبعها فضمت أخوات ابنها ضمة مشتاق وناحت عند التلاق من ألم الفراق ثم دخلوا بيوتهم جماعة وأعطوا العبيد أكلا كثيرا حتى خرجوا من عندهم شاكرين ولهم داعين بالخير أجمعين

قال وكانت أيامهم أيام أعياد وصدف انسهم بغير ميعاد فلا الآتي يهمهم ولا الماضي يغمهم ولا شغل لهم بالمناصب التي تكسبها الدسيسة والطباع الخسيسة وتذهبها السمعة والاخلاق الذميمة بل كانوا مكتفين بيعضهم كل الكفاية

غنيين عن الوالى والولايه لهم من أنفسهم شهود وحكم ومن كلامهم مواعظ وحكم لاحاجة لهم بأن يتشبثوا باخلاق أهل الامصار فى حب الاطلاع على شئ من الاخبار بل كان فضلهم بينهم مفسيا وذكرهم مستترا مخفيا ان سيل عنهم قيل اناس من الطيبين وحزب من المتقين

شعر

كانهم زهر البنفسج لايرى ● ولم يك لولا عرفه قط يعرف

وكنت لاأسمع فى سيرهم غيبة ولانميمه ولاشيأ من تلك الاقوال الذميمه فالنميمة تلوح فى ثوب الحق على الظاهر وهى تمشى بالسرير وتشين الضمائر فان قبل لك عن أحد انه من الاشرار أضمرت له العداوة كل الاضمار وقابلته بظواهر الصفا وانت ناوية فى القطيعة والجفا

قال الشاعر

ان النميمة تفسد الاخلاقا ● وتكدر الاهواء والاوفاقا

يكفيك منها فى الرذائل انها ● تكسو المهذب مربة ونفاقا

وكان من شان هاتين العاملتين أن لا يشتغلا الا بكل حسن زين بعاملان الناس باحسان ولا يقتفيان أثر انسان ومع عيشهما فى ظل الوحده ووحشة العزله فالزداد الا انسا وبهجة وفصاحة ولهجة لانهما من قصص العالم بمعدان

ومن

وعن أخلاق المدن منفردان وقد اغتنما من محاسن الطبيعة
بلذة تفوق اللذات ومسرة من دونها جميع المسرات يشاهدان
تلك الالطاف الالهيه والخيرات السماويه كيف بدلت محل
الصخر بخصوبه ويابس الجو برطوبه وملح الماء بعذوبه
وأنبتت لهما المرعى وكان غثاء أحوى انها النعم المثوى
وجنة المأوى

قال ولما بلغ قبول اثنى عشر سنه عدم الكبار
لانه أدرك من الذكاء وقوة البنية مالم يبلغه ابن خمسة عشر
في الامصار فكان يشتغل بتحسين ما يفلحه عبد مرجان
وكان دائما معه أينما كان يذهب الى الغابة بفاسه الصغير
ومنجله القصير يقتلع ما يراه من شجر اليمون والنارنج العطر
والثمر الهندي النضير والنخيل ذا الثمر الحلو الكثير ثم
يغرسها حول الحوض مع بقية أبذار من الاشجار ذات الفواكه
والازهار كالقشطة واللعل الفارسي والقاون الهندي ثم
ماراج من ألباب القثا والدبا والقرع والبلاب والحبة
الحمقا ثم البقدونس والكسبره وغيرها من ذوات
الاوراق المزهره ولم يترك قطعة من البور الا أرقدها وأبرأ
نسمها حتى لقد قرص الصبر مع مرارته والفلفل على حرارته
وما ترك شيأ من الازهار الصفرا والورود الحمرا والحوانيم

البيضا والفصوص الزرقا ورتب كل طائفة ترتيبا يسر الناظرين
ويبهج المتفرجين فجعل لزرع القصير فى بطون الوديان
وجعل فوقه كل عالى الاغصان ثم الاعلا فالاعلا والاحلا
فالاحلا ليتمتع الرائى بالنظر اليها مرتين وينشرح من وجهين
فان نظر مرة واحده شرح العيون ولا فقده
ثم غرس الخضراوات على شق معزول ومكان مفصول
وأحاطها بدروب من البر والارز والشعير وسائر المقل على
الفسق والتسطير ولم يخرج بها من مراعاة النظير ومناسبة
الطويل للطويل والقصير للقصير كالنبات الذى يحب الهوا
جعله فى الهوا والذى يحب الماء جعله فى الماء وكان الماء الصادر
من رؤس الخضرات لبطن الوادى ينشكل باشكال مختلفه
وهيآت مستظرفه فكانت من رقة مائها وشدة صفائها
تنطبع فيها الخضراوات وكافة الاشجار المزهرات وتلوح
من خلالها صخور كالقباب على صفحة الماء تنصب عنها ثوب
السحاب ومع عدم استواء تلك البقعه وارتفاع قطعه
وانخفاض قطعه فكان لا يبعد النظر اليها بالعين ولا التناول
منها باليدين وكما نساعد قبول أنا ومرجان ونرشده باليد
واللسان حتى عامناه ومرناه والى الفلاحة وطناه ومهدناه
فأصلح طريقا حول الحوض مظلله وأحاطه بشجر ذى فروع

مذلله ومهد الوعر وجعله مماشى لمتنزهه وألف بين الشجر البرى والاهلى فى برهه وكلما زاد من الجبر بنابه مساطب واهرامات وأحاطها بما يليق بها من النبات ثم ما مضى من الزمن كثير ولا انقضى غير يسير حتى اكتسى كل هرم ثوب شباب وتلفعت المساطب بظلال الخضرة والاعناب فصارت معاكف ومخادع ومسالك ومصانع يتنطل فيها نصف النهار وينفذون منها بحنى الثمار وكان اذا نظر الجالس منها عن يمينه رأى بستانا وعن يساره رأى الحوض بالحصائد ملتفا وان نظر امامه رأى موضع العشتين ونظر الجبل على بعد مرحلتين ومن جلس وقت الزوال تحت شجر الشنبر لم ير من كثافته شيأ ينظر فان كان على الصخرة الثانية من الجبل نظر الحوض وما عليه اشتمل ونظر البحر وموانئه ورأى السفن فيه بين ذاهبة وراجعة

وكانوا يجتمعون فى المساء فى رأس الصخرة فيتمتعون بالماء والهواء والخضرة ويشاهدون مجارى الماء العذب مع عوده باشعة الشمس وهى نازلة فى الغرب

وما أحسن ما اخترعوا من تسمية تلك المحلات وأبدعوا فى وصف المسميات فجعلوا اسم الصخرة المشبه باسم استكشاف المجبه وكان قبول ووردجنة عند لعبهما فى ريعان شبابهما

فدأثبتنا فيها عودا من الخيزران أو قضيبا من قضب البان فاذا جئت نصبوا له مندبلا ليكون اقدومي دليلا كما تنصب الاشارة على حصن الجبل لكل مركب دخل فخطر ببالي أن أنقش كلمات نجت عودا الخيزران كما كانت تنقش الكلمات على آثار المصريين واليونان وما خطر بفكري الا بيت أبي العلا المصري

شعر

معان من أحبتنا معان • تجيب الصاهلات به القيان

ثم نقشت على الجزع الذي كان يأوي اليه قبول حين كان البحر يهيج ويصول

شعر

من سكن المروج والرياضا • فقد قضى من عيشه الاغراضا

ونقشت على باب الستبدور وهو مجمع العائلتين في العشا والفطور

قصر عليك تحية وسلام • خلعت عليك جمالها الايام

ولما ان رأت وردجنه ما على الخيزران من النقش استطرفته واعجبت من كتبه واستجهلته وقالت هذا كله هوى وكلام لغوى فلبثك لومسحته وكتبت تحته

أهاجه الهوا • وقط ما هوى

فقلت

فقلت لها ان تلك الكلمات من فضائل البنات فاحمرت من الخجل وولت على عجل

ونهاية الامر فقد نشرت تلك العائلة ما تمكن صدورها على جميع ما حولها فخصت برفيق الاسماء كل شئ بليق بأن يكون المسمى كشجرات من الموز والمارنج والغار كان فيول وورد جنة يرقصان تحتهما في آخر النهار فقد سموها بالحانه وكشجرة قديمة كانت الست بدور وأقمران بقعدتان تحت ظلها بما أصابهما حين كان الفكر يقوم بهما سميت بدار السلوة والاعانة وسميا بعض الجهات التي بها البر والحمص باسماء بلادهما وكذلك العبد والجارية نقلدا بسادتهما سميا بعض محال باسماء بلادهما

فانعم بها من تعلة تروح الفؤاد وتسلي الغريب على البلاد وكم من شجرة من تلك الاشجار التي تراها اليوم مهجورة قد تمتعت منهم باسماء مشهورة وغير مشهورة وهي الآن كرسوم الاقدمين وآثار اليونان والمصريين

شعر

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكانها وكانهم أحلام

وقال ابن الورد

ان أهنى عيشة قضيتها * ذهبت أيامها والاسم حل

ولم أر احسن منظرا من تلك المسميات وأكثر بهجة بين سائر المحلات من المكان المسمى بخلوة وردجنه فانه كان بقعة من بقاع الجنه وذلك انه كان عند الصخرة المتحبه المسماة باستكشاف المحبه عين جارية عذبه تسيل على بساط من المروج الرطبه وكانت لما وضعت أقمطوان ابنها دعتني يوما عندها فاهدتهما من تمر الهند مجوزين فغرست أحدهما بالقرب من العين لتكون الشجرة تاريخا لمولده وقرينا لمحنده ولما ولدت وردجنه غرست أمها جوزا أخرى بجنب الاولى فصارت مثلها وان لم تشبهها طولا ثم أنبت الله الشجرتين نباتا حسنا وحفظهما مع فريديهما زمنا ولما بلغ الولدان من العمر اثنتي عشرة سنه وأفرغا قالب ما أحسنه صارت الشجرتان يفوقان الدور في الارتفاع انما كانت شجرة قبول أطول من الاخرى قدر باع ثم التفت الساق بالساق وانضمت الفروع للعناق فصارا كهيئة عاشقين وأدلى الجوز على العين وترك رفع الصخرة على ما خلق من فرافعها الصغرى والكبرى وأحجارها اليمنى واليسرى مع خضر أحشايشها الزبرجديه وحمرأوردها الجوريه وعقيق حصياتها الراتب في جدرانها ورجاني شعابها النابت في غدرانها ثم ما حفت به شواطئها من يانع القرنفل وزاهي الياسمين والفل وما يدلى على جوانب

الجبل البيضاء البقعه من تلك السمانات الدابيه المتقه فتكون
بمنزلة الجبال الاطلسيه للفرش السندسيه والحواشي المذهبه
على الثياب الصنعانيه فيراها الطير بعيدة المثال حميدة
العاقبة والمآل فيأوى اليها نهاره ليله ويحمي بها أفراخه والعياله
قال وكانت تميل وردجنه الى أن تستريح وهذا المخرج وتفصل
بعض الملبوس في ماء المنبع أو رعى قطيعه من الماء في أطرافها
المخضله فتكتسب ماءه ومرعاه وظله ولما علم قبول انها تميل
لهذا المحل وتألفه وتتردد عليه وتستاطفه صار كلما طلع
الغابة ورأى عش طير قابله في هذا المحل فقبله حتى ألفته
الطيور على اختلاف أنواعها وصارت تأتي اليه وردجنه كل
يوم بصاعها فتلقط هذا من الفله وتطعم هذا من ابسله الى
ان عكف عليها القطا والحمر من الخطا ونام بفرطها وأوت
اليه البلابل وكثرت التحاريرو [illegible] في ريش كالبل
في طرفه الشفق ومن عليه أثر [illegible] وذي قوائم
كالعندم ومناقير كالعنم ومن لابس طوق الفضة على ثوب من
العسجد ومخضر بوشاح من زبرجد لا أفول كالذهب
في الاكياس ولا كالملح في نفيس اللباس بل أبدع من ذلك
وأصنع مما هنا وهناك ان ظفرت بتصوره أعياك الانصاح
ولو كنت مستمدا من المصباح لنفد ما فيه وما في الصباح

شعر

فلله ما أحلاه فلا ما وقينة * على الخير شبا والخنانة والبر
قدائنا فافاستأنس الوحش منهما
وحتى سرى التأليف في معشر الطير

هذا وكم مرة أكلت معهم في الخلا * واجتمعنا في مكان راق وحلا ولم يتكلف مطعمنا سفك دم الحيوان مع انه كان كثير الدسم والالوان كالابن والقشطه وبيض الدجاج وفطير الارز على ورق الديباج وفواكه شتا ومطاعم من شجر ابن متا فما كان أحلا ثمارهم وأثمارهم وفواكههم ومفاكههم

وأما قبول فكان لا يتحدث الا بشغل يومه وغده وكان لا يمر غير المنفعة على لسانه ويده فيقول هذا الطريق يحتاج للتمهيد وتلك الخروق يلزم لها التسديد وهنا يلزم أن يكون كذا وبذا الشتاء يستريح وردجنه وبذا فاذا دخل عليهم الشتا بمطره وهبيم السحاب بقطره التجأوا البيت هم مع خدامهم وجلبوا الخوص والحصر ران تحت أقدامهم وجلسوا يتحدثون وهم يشتغلون ومن الحصر والاسبات يصطنعون وتكون أدوات الزراعة الى الحائط مسنوده وتحتها محصولات السنة الماضية محفوظة مرصوده فيتخذون منها مؤنتهم وغذاهم ويدفئون بها احتياجهم واذاهم وقد تعلمت وردجنه من

خالتها

الخالتها على المربات النار نجيه وأنواع الاشربة اليمونيه وهذا لاشك يتحف المزاج ويغنى المريض عن العلاج

قال فاذا جن الليل عليهم أحضروا الشماعة فى ضوء المصباح وتفكهوا بالخوخ أو التفاح ثم غسلوا القدور وحضروا وحضرت الست بدور وأخذت تقصهم خبر من انقطع فى مسالك الغوص المغرمه أو حديث سفن رمت بها الامواج على جزر منقطعه فتشعر لذكرها جلود السامعين ويدعون لهم بالنجاة أجمعين وكنر ما نامواعلى السيول الهاطله وهى على سطح بيتهم نازله أو ناموا على ضجيج الامواج ودوى الرياح وهم فى أمن شاكرين الله الى الصباح

شعر

وما لهم قط أعياد معينة ● بل كل أيامهم أيام أعياد
الكون معهدهم والله مقصدهم ● وصنعه كل يوم بينهم بادى
قد فوضوا أمرهم لله فاقتنعوا ● بما لديهم من الملبوس والزاد
وأمهاتهم لما اقتصدن سرى ● ذا الاقتصاد الى أرواح أولاد
عصابة ان أصاب الهم بعضهم ● هموا به وأعاذوه بايراد
كانهم صفت من رعى ضم أفرعه ● ليستعين على الارواح فى الوادى
فاذا جاء فصل الربيع ذو الغيث المريع خرجوا الزيارة جيرانهم الفقرا ولم يتداخلوا قط عند الامرا مع ان أغنياء

هـذه الجهات كانوا يتقربون اليهم على عدد الاوقات ويدعونهم الى اصطحابهم والاستئناس بهم فكانوا يعتذرون لهم بألطف الاعذار ويتخلصون من ورطة [illegible] لعلمهم ان الاغنياء لا يدعون الفقراء الا ليتفاخروا [illegible] هم مع ذلك يتعاظمون عليهم وكانوا يألفون أحد من فقراء البلد ممن شأنهم النميمة والحسد فكان تخاصمهم واجتماعهم من باب الافتقار لا من باب الانفة والاستكبار لذا صار الغني ينظرهم بعين الاحترام والفقير يقابلهم مع الابتسام وكم من فقير أعياه دهره وأرزله عمره فجاءهم منكسرا فواسوه واستعان بهم فأعانوه وكم مريض أتاهم بدائه فرجع بدوائه واستغنى بهم واكتفى ورزقه الله ببركتهم الشفا

وكانت وردجنة تتناول لهم الدواء بيدها وتجود في خدمتهم بأحسن ما عندها فترجع بعد شفاهم باكيه من الفرح شاكرة لفعلها الذي تجمع ثم تأتي مع أهلها لزيارتي فأقول لها أهلا وسهلا بجارتي الآن وجب علي اكرامك وعظم لدي مقامك ثم أنجزهم موعدا وأهتم لهم في الغدا وأكون قد أعددت لهم شيأ من الشراب العتيق يلون العقيق فنطرد به جيش الهم وننهزم بسطوته جنود الغم ونجعل مجلسنا في مصب نهر التنوير أو بمظلة يجانب الغدير ونكون قد ادخرنا لهذا

اليوم

اليوم فوا كه جنبه ولحوما طريه وربما اجتمعنا على العزة يوم ريح فجلسنا نتحدث عليها ونستريح ينظر نا البحر الهاج وتلاطم الامواج فينزل قبول فيه يوم فيطرد الروح فيأتي وهو مهزوم فتصح وردجنة صيحة حوف وضجر وتقول لا أحب هذا اللعب لانه على خطر

وكان اذا انقضى الطعام ووجب القيام أخذ قبول وردجنة من يدها وشرع يرقص بها وهي تغني بلذيذ النغمات وتنشد هذه الابيات

شعر

يا حبذا عيش الخلا * من الهموم تدخلا
ما من فتى يسكنه * الا وعيشه حلا
يا من لج البحر قد * هوى موبتوالبلا
الارض أهنا منزلا * لمن أراد منزلا
ان لم تنل بهجتي * منك فلا حول ولا

قال وكان من عادة عبيد هذه الجزيرة أن يلعبوا القمارات الاشاريه ولا يخفى ان الاشارة هي أول لسان للطوائف البشريه ومذ رأت وردجنة تلك الالعاب همت بتقليدها وأتقنت في الاشارة بيدها وجيدها وكانت سمعت من أمها حكايات عديده فكانت لا تقلد منها الا الاشياء المفيده فكانت تلعب

تارة وحدها وتارة كان مرجان يساعدها بأن يصاحبها بمزهره ويزيد عليها بعضا من مساخره وطالما جن الليل علينا ونحن في الغابة جالسون وكلنا ببعضنا مؤتنسون فنبيت على النعيم النابت تحت الشعير لا نخوف علينا ولا ضرر فاذا أصبحنا ذهب كل الى داره فيراها على حالها لكثرة الامن في هذه الجزيرة وأهلها

وكان أسعد الايام على الولدين مولد امهاتهما فانه اذا أقبل ذلك اليوم عليهما تبيت وردجنه ساهره لتحضر ما تقدر عليه من الاطعمة الفاخره وتذهب في غد ببعضه الى كثير من فقراء الجيران الذين لا مقدرة لهم على المطاعم الكثيرة الالوان وكان اعتذارها بقلة الموجود حين كانت تجود أوقع في نفس الآخذ وأكثر شكرا وأعظم عند الله ثوابا وأجرا

ولقد شب هذان الشابان على سنن الجبلة الاصليه ونشآ على سنن الجبلة العزيزيه لا حاجة لهما الى اتخاذ الساعات لمعرفة الاوقات ولا لقراءة الكتب للاطلاع على ما مضى في سالف الحقب بل كانا يعرفان المواقيت بالظلال والفصول بالشهور والسنين بالغلال فكان اذا حان وقت الغدا ولاح زمن الزوال وبدا تقول وردجنة لاهلها قد استوت شجرة الموز بظلها واذا ولى النهار وعزم اليوم على الفرار قالت شجر

النمر الهندى أغانى ورقه وأغمض حدقه أوقالت لها جاره
متى الزيارة قالت لها فى قصب السكر نزوركم وننتهى به وبكم
فتجيبها بكلام منه أحلا بأن تقول لها أهلا وسهلا وكم
مرة قال لى قبول وما أحسن ما كان يقول أرانى كلما قابلت
وردجنة وخلوت بها تجاسرت عليها وقلت لها انى كلما
رجعت من أشغالى وأراكى وانظر فيك صنع من براكى زال عنى
تعبى وذهب ظمائى وسغبى وان كنت على شرف الجبل وأنت
فى الوادى حن اليك طرفى وفؤادى ورأيتك بين الروض
وشجره أحسن ما يلوح من زهره وثمره

شعر

واذا مشيت لدارنا فأرى الفطا
وصفارها أردى وأبطأ من مشى
اوضبت من عبنى تحت أريكة
تخبا الى جسمك فى الجفون وفى الحشى
واذا مسستك عامدا أو ساهيا ٭ طرب الفؤاد من المسرة وانتشا
أتذكرين يوم حملتك على ظهرى وعبرت بك النهر وأنا أجرى
كأنى رزقت بحملك جناحين أوازددت على رجلى رجلين
آخرين وكنت قبل ذلك أعيانى السير فكدت بحملك أن
أطير فبأى حسن بهرتنى وأى سحر سحرتنى ان كان

بعقلك فامهاتنا أكبر منا عقلا أركان بحنانتك فهما أحن منا
قولا وفعلا أظن ذلك لكثرة ما أنت عليه من الطيبه فانها
فيك عجيبه ولم أنس ما صنعته مع الجارية القاره وما فعلت
معها من الامور السارة فنذى هذا الفرع المزهر من اليمون
فانه أعجبني بين الغصون عطري به عند النوم فراشك
واجعليه واسطة لانشراحك وانتعاشك وكلي هذا الشمع
بعسله الشهدى فقد جنيته فوق الصخرات بيدى ثم انعطفي
بكليتك على قلبي لاستريح من تعبي فتقول له ورد جنته واحبيباه
وقرة عيناه والله لانت في عيني أبهى من الشمس اذا طلعت
وأبهج من الرياض اذا أينعت وان امي وامك لاحب الناس الى اذا
أكرمك وبانهما اسعداك وان تودهما اليك ألذ من تودهما
الى وتحننهما عليك ألطف عندى من تحننهما على نسألني من
وجه انك تحبني ولاى شئ تريدني أما علمت ان من يتربون معا
يتحابون طبعا فانظر الى حمامنا الذى تربى في دارنا
ترى البعض مع البعض ان طار في السماء أو نزل على
الارض واسمعهم كيف يتناغمون ومن فرع الى فرع يتراسلون
اني والله ما سمعتك تغنيت بمزمارك وأنت على الجبل الا وصداه
الى وصل فأعد نغمته بصوتي وأجثو على الارض لوقتي
وأدعو الله أن يحفظك ويبقيك ومن كل سوء يقيك فلاى

شئ تشوغل في الغابه وتتعب نفسك بهذه المثابه أليس عندنا في البستان من تلك الازهار كما فيه من جنى الاثمار انظر كيف تصببت عرقا وزدت من حر الشمس حرقا ثم تمسح جبهته بمنديلها وتتطف وردخده بتقبيلها

قال وبينما هي على ذلك مده تلوح كالورده اذ أصيبت بداء مجهول وأمر مهول بأن تغير بياض عينيها باحمرار وأحمرار خديها باصفرار وظهر عليها الهزال وانطفى سراج وجهها وزال وتغير مزاجها فصارت تغيب بلا سبب وتحضر بغير طلب وتركت ما عليها من أشغال العبله وصارت تهرب في الاماكن المعتزله وصارت اذا رأت قبول تهرع اليه وتلقى بنفسها عليه فاذا دنت منه وقفت وتحيرت واحمرت منه خجلا وتغيرت فلا تقدر ان تنظر اليه بعينيها ولا تمسه بيديها فيقول لها قبول ودمعه على خده سيول

شعر

كل شئ لما راك تحلى ● بجلاه وزاد لطفا وزينه
وأرى الطير رقصا حكما من سرور ● ولماذا أرالذات حزينه

ثم يقرب منها ليضمها فتهرب منه لامها ولم يعرف قبول ما الداعي لذلك وما السبب فيما هنالك

شعر

واذا أصاب المرء بعض مصيبة • كرت عليه بعدها أضعافها
قال واتفق ان هاج الحر واشتد حتى لم يقدر على التنفس أحد
وحلت الشمس في برج الحمل والتهب الجو بالنار واشتعل
وهبت رياح السموم وفتحت أبواب الجحيم واحمرت الارض
وتشققت وبست الحشائش وتحرقت وأقفرت البرى
والقفار وغاضت عيون الانهار فلن ترى سحابة من ابصر
مقبلة ولا قطرة من السماء نازلة بل تكاثرت الابخرة اصفرا
وتبدلت الخضرة بالحمرة وصارت الشمس عند غروبها
كالحريق ودخل الليل مع الكرب والضيق وأحاطت بالقمر
هالة حمرا وانتشرت في الجو خيالات سمرا وضاقت المسالك
والمعاشي وضجت الناس والمواشي وشحت الموارد والمراعي
وزهقت نفس المرعى والراعي وانتشر خشاش الارض وماج
بعض الناس في بعض وأحاطت الحشرات من كل جهاتها
بالحيوانات لترتوي من دمائها

فأحست وردجنة بازدياد دائها ولم تكن تعتريها فصارت
تقوم وتقعد وتضطجع وترقد فلا تجد الراحة على أي حاله
ويئست من النجاة لاعتلاله ثم توجهت للسقية فرأت عينها
مع افورار العيون زائده ومياهها مع انتشار الحرارة باردة
فانغمست بكليتها فيها وجلست على حوافيها

شعر

خليلي داوينا ظاهرا * فإن ذا يداوى جوى باطنا

وقال آخر

صحت من لوعتي وشدة شوقي * الحريق الحريق فانفض صحبي

وأتوا بالمياه نحوي وقالوا * أين ذاك الحريق قلت بقلبي

قال فلما ابتل ظاهر جسمها وخف عنها بعض ألمها تواردت عليها افكار نفايس وتصورات ابكار وعرايس فتذكرت انها وهي صغيرة كانت أمها تغسلها مع قبول في هذا المكان وان قبول قد أتقنه بعد غاية الاتقان بان نحت به حوضا وجعل له من الرمل الابيض أرضا وغرس حوله سائر أنواع الرياحين وأغلب ما تزان به البساتين وجعل له حماما لورد جنه وخلوة لها مسكنه فلما رأت عليها خيال شجرتي الجوز المغروستين يوم ولادتهما وانهما التفا على بعضهما تفكرت في حبها لقبول وأشار لسان الحال منها بقول

شعر

أتنفس الصعداء حيث فضائلي * جلت براعتها بغير رواح

كتنفس الحسنا في المرآة اذ * نظرت محاسنها بغير زواج

ثم تفكرت في الليل والخلوة وانها كالعروس عند الجلوة ففزعت من الشجرتين المعتنقين ومن حرارة لم تطفيها مياه العين

وعلمت الى أمها عاضة بفمها على كمها وكلما بدا لها ان تبث
ما تلقاه وان تفصح عن نهواه غلب عليها الحياء فسكتت
وقبضت على يدامها وأمسكت واتكأت على صدر أمها وبكت
قال فقطنت أمها لخبرها وعرفت حقيقة أمرها وقالت لها
يا ابنتاه بنى حزنك لمن بيده الموت والحياه والهلاك والنجاه
فانه تعالى اذا ابتلانى الدنيا بثيب فى الاخرى وانثانى تلك الدار
بمنون وبالمحافظة على اعراضنا وكلون قال الراوى ثم
تصاعدت من البحر أبخرة كثيفه فتجاذبتها الجبال المنيفه
وصارت رؤسها ترمى بالدرر كالقصر كأنها جمالات صفر
ثم هال السيل واستوبل الطل وامتلئت الغدران
وجرت الوديان حتى صار الحوض كالبركه الكبيره وصار محل
العشبين فى وسطه كالجزيره وأصبحت فوهة الوادى كصب النهر
يخرج منه تيار عظيم فيصب فى البحر وبقيت السكان تحت
سقوفها تدعو الله وتصرخ وتستغيث والريح تنفخ وكنت من
شدة لمع البروق ودخولها فى المساكن من الخروق ترى ان
الليل صار نهارا وان الجو على شموسا وأقمارا وقبول مع
هذا يخرج من مكان الى مكان ويصلح مع العبد ما تحتاج اليه
العشتان وكلما رأى أمه فى خوف فواهم وأوعدهم انا الفرج
اومناهم ولقد أبر الله قسمه وأبر انسمه اذ من قليل تقشعت

العواصف وسكنت الرياح القواصف وران الجو واعتدل وسرى نسيم الشمال

شعر

وقع الجنوب مع الشمال بفدفده ... واستعملا حربا هناك طويلا
حتى رأينا بعد ذاك الهوا الجنوب ... مجندلا وهوا الشمال عليلا

فأول ما اشتاقت ورد جنة الى رؤية شئ من الاماكن ومالت لتفسح فيه من المساكن كان الى مخدومها تلقتها وتلهفها ولمحل استراحتها كان تشوقها وتشوفها فلما رآها قبل دنى منها مع الخجل ومد يده اليها وهو من الهجر على وجل لكنها قبلته واستحسنته وأحبت مجانسته مثلما أحبته وخرجا معا والجو رايق والهوا للتنزه لايق فدخلا البستان وقد خربه السيل وأوقع به الويل فاقتلع أشجاره المثمره وذهب بقضبانه المزهره وملاء المماشي بالاشجار وردم حمام وردجنه بالرمل والاحجار وأما الجوزتان فلم يصبهما أذا بل بقيا على حالهما وحبذا ولا تسل عن المجالس المخضله والمعاكف المظله ولا الطيور الصادحه مما جرى لها البارحه فانه لم يبق الا بعض أفراد على رؤس الجبال يندبن ما أصاب أفراخهن من الوبال فحين سمعت ورد جنه بكاء الطيور تحسبه وما بالهم من تلك المصيبه قالت لقد ول انظر ما حل بالطير الذى ألفته والشجر الذى كلفته فلا أمان من

تقلب الايام وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام

فنظر اليها قبول وانشا يقول

لو أن لى فى السماء شيأ • لكنت أوهبته اليك
أو كان فى الارض لى متاع • قدمته بين راحتيك
لكننى معدم وما لى • سواد دمعى وقفا عليك

فاحمر من ذلك ورد خديها وحصرته بين يديها وقالت له عندك صورة ورثتها عن أبيك وهى لك بغير شريك وقد قالوا عليها انها صورة أحد العباد وامام الزهاد فاعطتها أنيرك بها فاشار برأسه طوعا لها وقام مسرعا الى دار أمه وأتى بالصورة فى كمه فلما أخذتها أقسمت بالله أن لا تمكن منها أحدا وأن تحفظها معها دائما وأبدا فلما سمع مقالتها وحقق صدقها وأمانتها هم بتقبيلها فنفرت وتخلصت من يديه وفرت فأخذه من الحب زياده لما رأى ذلك منها على خلاف العاده وبقى متحيرا فى أمره من شئ لم ير مثله طول عمره

قال الراوى ثم ان أقمر ان خرجت يوما من بيتها وتكلمت مع الست بدور فى زواج ابنها بابنتها وقالت ان لاحدهما عند الاخر منزلة عظيمه ومحبة جسيمه وان ابنى وان لم يدر بامر الزواج ولم يكن الى النكاح بمحتاج لكنه اذا بلغ رشده وصارت

أمضاه معتمده لا ينفع الحرص عليهما ولا يمكن الاحتراس منهما فقالت لها انهم صغار وفي غاية من الفاقة والاضطرار فان نحن الآن زوجناهم وفرحنا بهم ندمنا غدا على حالة أولادهم وربما لا تجد ورد جنة قوة على تربيتهم وأنت لا تعلمين علم اليقين ان صيدك قد بلغ الهرم وجاريتي صارت كالعدم وأنا من الهم وكثرة الهم صرت غير قابلة لخدمة العائلة سيما ونحن في البلاد الحارة التي تهرم الانسان قبل الاوان ولم يكن انا ما أمول الا في ابنك قبول فاصبري حتى تقوى بنيته وتظهر فتونه فيكون عضدنا وساعدنا وعلى العيشة يساعدنا لاننا كما تعلمين على فاقة وليس انا على الكدمن طاقة وما ضر لو أرسلنا ابنك الى الهند بقصد التجارة ليدخر منها أدخاره ويعود مع الشطارة والمهارة

شعر

ويحرز الاصناف والنقودا ● ويشتري الجواري والعبيدا

ويعد ذا الخير وهذي المنه ● تزوجنه بورد جنه

فانها تؤلها وأهل ● ولم يكن لها سواه بعل

ومع هذا نستشير جارنا ● فهو على فاقتنا جار الهنا

ثم انهم بعد ذلك أحضروني وفي هذا الامر استشاروني فاستصوبت رأيهم وقلت لهم ان تجار الهند جميلة وأخطارها

قليله سيما اذا اخترنا من الفصول فصلا لطيفا ورأينا البحر فيه من المواصف نظيفا نجمع لقبول مقدارا من البضاعه وعندنا من التجار الذين يحبونه جماعه فلا يغيب الا بعض أسابيع في الذهاب ومثلها في الاياب ولا نأخذ له غير القطن والابنوس فانها عندنا كثيرة غير مطلوبه وأما في الهند فانها مرغوبه لان لها عندهم قدرا عظيما وثمنا جسيما ثم أوعدتهم بأن أشافه الحاكم من هذا القبيل وان استأذنه من الرحيل لكني رأيت أن أتكلم قبلا مع قبول وانظر كيف يقول

هذا ولما ان قابلته وكلمته وبتلك القضية أعلمته تعجبت من جوابه الي وما استعمله من الرد علي فانه ناشئ من ذوق سليم وخبير عليم وذلك انه قال لي كيف تريد أن أذهب من هنا وأترك أهلي لابحث عما يسمونه بالفنا هل في الدنيا تجارة أو بضاعه أحسن من الذراعه أليس الرجل يكسب فيها المثل خمسينا وربما بلغ مائتا وان أردنا الكثيره فهي هنا ممكنه في جميع الازمنه بأن نأخذ ما يحمله المؤنه ونذهب به الى المدينه فنكسب كثيرا من النقود ولا نحتاج الى وجوه الهنود فان قالت أمهاتنا ان العبد والجارية قد هرما وفي السن تقدما فها أنا شاب ذو نجابه وكل يوم ازداد قوة وصلابه وربما تزات لي في السفر نازله أو حصلت لي حاصله فأكون سببا

فى مصيبتهم وداعيا الى بلبتهم سيما وصحة وردجنة الآن معرفه وأنا لا أزكيها وهى بهذه الصفه

وفى الواقع انه حيرنى بجوابه وأدهشنى بصوابه وكانت الست بدور أطلعتنى على أمر ابنتها وانها ما عزمت على هذا الامر الا لصيانتها فقصدت أن أبعدهما عن بعضهما مده حتى يبلغ كل منهما أشده وما أظن أن قبول كان يتهم بمثل ذلك أو انه يتجارى على ما هنالك

قال وبينما نحن فى تدبير ولا نعلم بما جرت به المقادير واذا بخطاب وردللست بدور من عند خالتها وكان الباعث لها على رسالتها انها مرضت بداء الازمنا وقيل بالانيما وهو داء لا شافى له غير الموت ولا تخلص منه الا الفوت ولولا ما حن قلبها على ابنة اختها وما كانت يوما تفكرت فيها فطلبت منها ان تحضر عندها ان أمكنها والا فلا بد من ارسال ابنتها لانها تموت على تربيتها وانها ستزوجها بأحد وجوه الدوله وان تخلع عليها شرف العيله وتهبها مالها وتجود عليها بما لها وجعلت قبول ذلك شرطا فى ارتجاع الالفه وتجديد المحبة والمعرفه

وما تمت قراءة هذا الكتاب الا وحصل فى البيت انقلاب وانتشر الهم والغم وبكى مرجان ومريم واندهش قمول وسكت ونظرت وردجنه الى أمها وبكت فقالت أقحوان

الست بدور على ذلك فى السفر والقطيعه حبانى تلك الحاله
الشنيعه فقلت معاذ الله أن أتركم وأنا ما عرفت السعادة
الا بكم فان كنتى ما نحلت وبنيتى ما اضمحلت الامر هموم
قديمه وأمور وخيمه منها فقدى أهلى وموت بعلى وما
هنانى وسلانى وفرج كربى وأحزانى الاجتماعى بكم
ووجودى معكم فكم شاهدت فى هاتين العشرتين المسره
ولقيت فى ظلالهما المعزة والمبره ورأيت ما لم أره بين أهلى
وناسى بالبلاد التى هى مسقط رأسى وما فرغت من قولها حتى
طابت نفوس الحاضرين وقرت عيونهم أجمعين وقام فمشى الى
الست بدور وضمها ثم بعد ذلك قال لها وأنا الآخر لا أسافر
الى الهند أبدا بل أبقى هنا فى خدمتكم عبدا ونحن لسنا
محتاجين الى شئ من البلاد الاجنبيه ولا الخروج من تلك
الجزيرة البهيه فانشرحوا كلهم الا ورد جنه فانها بقيت مشغولة
البال ثم بعد قليل صرف عنها الاهتمال وزال وانبسطوا
أجمعين وباتوا بمالديهم فرحين

فلما أصبح الصباح وانتشرت الانوار فى البطاح حضروا
للصلاة على حسب العاده وأحضروا الفطور بالطرقه
المعتاده فأخبرهم مرجان عن أمير مقبل على حسان وورائه
من العبيد اثنان وكان ذلك القادم هو حاكم البلده فترجل

ودخل

ودخل عليهم وحده فوجدهم كلهم حاضرين وعلى المائدة
قاعدين وكانت وردجنة قدمت لهم شربة من الارز والارز
وفاكهة من ثمر الموز ثم شيأ من مقلى البطاطس في صحاف
من القرع اليابس فلما رآهم الحاكم على تلك الحالة تأسف
وأقبل على الست بدور وهو يضرب كفا على كف ويقول ان
الاشتغال بامور هموم العباد ألهاني من الالتفات الى خصوص
الافراد ولقد أخطأت في عدم السؤال عنكم وأطلب
السماح منكم لكنك أيتها الست بدور لك خالة من الاكابر
وأغنياء أهل الجزائر قد أعدت لك أموالها وسلمت لك
أمورها وأحوالها فهل لك أن تسافري لها وتقيمي عندها
فقالت له يا ابتي أقوى على السفر وليت مزاجي ما كان تغير
فقال لها ان كان الامر كما تذكرين وانك هنا من القاعدين
فانظري الى ابنتك هذه وفاتها ولا تضرميها من ارث خالتها ولا
أخفي عنك ان خالتك قد استحالت بالحكومة على جلبك
فبادرت في طلبك وكتب الى الديوان مع الاستعجال ان استعمل
القوة ان اقتضى الحال انما المعروف منى وشفقة صدرت
مني أنبتكم مع اللطف وما اتخذت الا لغة ولا العنف وفي
أملي انك تستغنين عن ابنتك بعض سنين وهذه المدة يبنى
عليها اصلاح أحوالها وأحوالك وازدياد أموالها وأموالك

ثم وبالله عليك لاى شئ يترك الانسان وطنه ويعذب روحه وبدنه ويهاجر الى مثل هذه الجزيره مع مكابدة المشاق والحيره أليس لكسب الدراهم وجلب المنافع والمغانم فما أغرى الانسان بهذا العذاب ان أمكنه فى وطنه ذلك الا كذاب

ولما فرغ من قوله وضع لهم كيسا مملوأ فلوسا وقال لها خذى هذه الدراهم من قبل خالتك قد أرسلتها المشترى لوازم سفر ابنتك ثم التفت للست بدور وقال لها وأنت لم لا تزورينا وفى بعض حوايجك تستقضينا حقيقة ان هذا منك عدم اعتنا وقصور منك فى حقنا

فقال له قبول ان أمى قصدتك فى أمرها فافا كلمتها وأنت عندك فما أكرمتها فقال الحاكم للست بدور ألك ولد آخر فقالت هو ابن صاحبتى وهو عندى فى المعزة بمنزله ابنتى فقال له الحاكم يا ولدى انك اذا علمت باحوال الدنيا عزرت ذوى المناصب العليا وعرفت ان الامور تلتبس عليهم بعض الاوقات فينزلون الطيب مكان الخبيثين والخبيثين مكان الطيبين ثم انهم يجلس معهم فيجلس وأكل من طعامهم وانتفس فى الدرهم من نظافة بيوتهم على صفرها ونظام أمتعتهم على حقارة قدرها وعجب من ائتلافهم ببعضهم وبذل جهد خدماهم بهم فقال ان أوانيكم وان كانت من الفخار يظهر

عليها المجد والفخار لانى أرى عليها من اللطف طلاوه
ومن الساذجية حلاوه سيما وباستعمالها بين اناس مثلكم
كرما أصدقاء بينهم عظما تظهر بهجتها وجمالها ويشرف
استعمالها

فسر قبول من أدب ذلك الحاكم وثبت عنده انه عادل غير ظالم
فقال له انى ليسرنى أن أكون من أصحابك وان أنتظم فى سلك
أحبابك لانك من أطيب الناس ذو درجة بالغة فى الايناس
فشكره على هذا المقال وصافحه مصافحة الرجال وأوعده
أن يكون له معينا وصادقا وأمينا ولما انقضى الطعام ونفر
الكل الى القيام أخذ الحاكم الست بدور وحدها وانفصل
بها عنهم وقال لها اليوم تحضر سفينة من السفن المتوجهة الى
الجزاير ولابد لابنتك فيها أن تسافر وانى لصاحبها باس أقدمن
أقاربى وأعز حبابى فأوصيك أن تنتهزى هذه الفرصه
الممكنه وتستغنى عن ابنتك قدر سنه حتى تنال هذا الميراث
العجيب وترجع عندكم بالفرج القريب ثم قال لها وهو خارج
من عندها اعلمى ان خالتك لا تعيش الا سنة أو سنين وقد
أخبرنى بذلك من رآها بالعين فتفكرى كما تفكرت وتأملى فيما
ذكرت واعلمى ان الغنا لابد يسرنى كل الاوقات وانه لا ينفع
الندم على شئ فات فقالت حيث لا بد منى الاهى فقد فوضت

أمرها اليك وتوكلت على الله ثم عليك قال وما صدقت الست بدوران لأحت لها هذه الفرصة حتى انتهزتها ولاظهرت لها تلك الطريقة في ابعادا بنتها من قبول حتى اتخذتها ليكون اجتماعهما بعد ذلك أوثق وزواجهما قد وجب واستحق ثم انها أخذت بنتها وحدها وشرعت تفهمها بما بدالها وقالت لها ان خدامنا قد طعنوا في السن وقبول صغيرا لا يتقن أمر المعيشة ولا يحسن وأقصوان أمه قد هرمت وأملك في السن تقدمت فاذا مت فماذا يكون حالك بعدي وأنا فقيرة لا شيء عندي وأنت في مكان قفر لا مال عندك فيه ولا وفر لمن ذا يقوم بخدمتك ويسعى في مؤنتك وان ألجأتك المعيشة الى الكد تشتغلين في فلاحة الارض مع النكد فكلما فكرت في عاقبة أمرك بعدي تقطع قلبي وكبدي فقالت لها وردجنه يا أماه لا حول ولا قوة الا بالله ان الله خالقنا للسعي والاشغال وأنت عودتني على ذلك في جميع الاحوال

شعر

والله ربي وهو حسبي وكفى • قد سترالبدأ فنرجوه الوفا
لم ينس قط في الزمان الازل • فكيف ينسى في الزمان المقبل
وهذه الرقة في العباده • لذلك يا أماه مستفاده
وانني لا أستطيع البعدا • عن هاهنا طرفة عين أبد

فقالت لها أمها وهي في أشد الغيض وقلبها يذوب من الغصص
ان قصدي بسفرك اصلاح شأنك وعلو قدرك ومكانك ثم
أزوجك عند العودة بقبول والله وكيل على ما أقول فانه كفؤ
لك وأهل لان يكون بعلك (قال الراوي) واعلم ان البنت اذا
عشقت ظنت ان لا أحد يعلم بحالها وان لا مطلع على ما في بالها
وان الحب الكامن بين جنبيها لا يظهر للناس من عينيها فاذا
حركت يد الحبيب أشجانها واستكشفت ارجائها واركانها وكان
ذلك الحبيب قريبا ملبيا للدعوات مجيبا آمنت تلك البنت
وسلمت وبما في ضميرها تكلمت وان ورد جنه حنت لنا لطف
أمها وباحت لها بسرها واسفرت لها عما وراه واظهرت
ما لم يعلمه الا الله فعذرتها أمها على عشقها ولم تعنفها على كثرة
شوقها بل خافت عليها من الفضيحة وشرعت ترشدها
بالنصيحة فتجاسرت وردجنه وكثرت قواها واكثرت لامها من
شكواها واظهرت ان لا سبيل الى الفراق وانها لا تخاف
من أحد على الاطلاق

فلما رأت الست بدور ان تلطفها بابنتها وما أظهرته من أمنيتها
لم يفدها غير المخالفة والعصيان والميل الى هوى النفس والشيطان
فقالت لها يا بنتاه لا تثريب عليك فالامر مفوض اليك فانفردي
بنفسك وتدبيري وامكثي وحدك وتفكري وان كان عندك

بعض من المعقول فلا تظهري عشقك للقبول

ان الحبيب اذا رآك تحبه ● كتم الوداد وأظهر السلوانا

وبينما هما يتحدثان وحدهما وقد جن الليل عليهما واذا بشيخ فقيه قد أقبل وسلم عليهما حين دخل وكان من فقهاء تلك الدور قد اعتاد على قراءته في بيت الست بدور وقد كان أرسله الحاكم في خدمتها وان يؤكد عليها في سفر ابنتها فقال عند دخوله وبمجرد وصوله الحمد لله الذي أغناكم بعد الفقر وعوضكم خيرا بعد طول الصبر فتراصوا خيرا بالمساكين فان الله يحب المحسنين أما بعد فقد بلغني ما قاله لكم حاكم تلك الجزيره السيد البر ديني صاحب النعم الكثيره وأعلم ما صدر عنه من القول المفيد الناشي عن الرأي السديد فاما انت يا بدور فسفرك من هنا غير مقدور فان صحتك اعتلت وعافيتك قد ولت واما انت ايتها الصغيره فلا عذر لك في السفر ولا بد من تسليمك للقضاء والقدر وان تطيعي أمر الاقارب وان ظلموا وان تسلمي لما به حكموا فان سفرك وان كان لا أحد يرضاه فهو على ما حكم الله فلقد أنزل تعالى في كتابه العظيم على لسان نبيه الكريم قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة في القربى وان سفرك ان شاء الله لنعم العقبى أفتعصين الله ما أمر أم تسلمين للقدر

قال فما طرقت وردجنه زمانا برأسها وهي لا تشعر بنفسها ثم

قالت

قالت وهي ترتعد ولم تكن عن المقصود تبتعد حيث ان الله اراد
فلابد ان يقضي المراد ثم بكت بكاء شديد ما عليه من مزيد
وذهب الفقيه للحاكم واخبره بالنجاح وقال له ان ورد جنه
رهبت بالسفر ولم نحتج الى الحاح

أما الست بدور فانها احضرتني وفي سفرا بنتها استشارتني فما
رضيت بسفرها وما اعجبني رأيها بل قلت لها ان الغنائي
الخبرات الطبيعه لافي الثروة المالية وانا اذا عدمنا شيأ في
أرضنا فلا حاجة لابحث عنه في أرض غيرنا وما تركت الاوائل
كلمة لقائل

فيم اقتحامك لج البحر تركبه • وانت يكفيك منه مصة الوشل

وقال الشافعي

امطرى لؤلؤا جبال سرنديب وفيضي انهارنا كرورنيرا
انا ان عشت لست اعدم قوتا • واذا مت لست أحرم قبرا
واذا ما رضيت بالعيش قوتا • فعلى م أزور زيدا وعمرا

وقلت في معنى آخر

ولكن ما عسى يغنيك نصحي • اذا أغراك بالطمع افتتان
وان اصماك في الدنيا طلاب • فما يغنيك من وعظي بيان

فان الست بدور ما استشارتني الا في الظاهر ومراعاة
للخواطر لانها كانت أعطت للفقيه قولا واصرت على سفر

ابنتها من باب أولى واما اقحوان فمع علمها ان سفر ورد جنه يعود بالخير على ابنتها لم تزل تتوقف فى السفر وتظهر منه الاذا والضجر ولما رأت ان توقفها لم يجد نفعا وان السفر تحتم قطعا رجعت عن المعارضة والمناقضة وسلكت مسلك المفاوضة وكان قبول يجهل باطن الامر ويتعجب من مسامرتهم فى السر ومن خلوة الست بدور بنتها وانفرادها بمكالمتها وقال انهم يتحدثون من قبلى ويتغامزون على شئ من أجلى

ثم لما أشيع بين أهالى هذه الجزيرة ان الغنا زاد أهلى تلك الجزيرة نسات التجار اليهم من كل الجهات واحضرت كامل البضايع والمهمات كالشاهى والكشمير والمشنة الصوف والحرير والخز الشامى والديباج الصنعانى والاطلس والحبر وما يصطنع باليد وما يشتغل بالابر وهكذا ما يذهب بالذهب ويودى بالمال والنشب

وقد خيرت الست بدور بنتها فى مشترى ما يجبها وأخذ ما يذهبها وهى تفصل لها الاثمان وتعطى الدراهم لصاحب الخان ولم تختر ورد جنه الا ما أحب أمها وأحب أقحوان وابنها بان اشتروا هذا لك وهذا اليه وذا للعبد وذا للجاريه حتى نفد ما فى الكيس من القروش فى ثمن المرسوم والمنقوش ولم يبق فيه اثر ولا ما يستعان به على لوازم السفر وكانت هذه الثروة

الباهره وتلك الاقمشه الفاخره تعتبر عند قبول بمنزله مصيبته
لانه يترتب عليها سفر حبيبته فجاء عندى بعد ذلك بأيام وهو فى
غايه من الوجد والهيام وقال لى وهو فى أعلا درجات الغم وجسمه
مهزول من شدة الهم ان اختى شدت لفراق رحالها وعلقت
بالسفر آمالها فبالله عليك الا ماجئت عندنا وسعيت بالنصح
بيننا والحت على أمى وأمها ومنعتهما من سفرها فقلت له سمعا
وطوعا ولا بدلى فى ذلك ان أسعى قال فتوجهت اليهم ودخلت
يوما عليهم فرأيت وردجنه وكنت بالقماش الازرق استمالها
وبالعصابة الحمراء استمالها فناهيك بها وقد رأيتها فى أنحف
الملابس و أغنا الحرير والاطالس تخب فى بطائن وردية وتعثر
فى أذيال عبقرية قد انخفض خصرها النحيل لما ارتفع ردفها
الثقيل وانتصبت تيجان ظفائرها الجعديه [illegible]
حروف أجفانها الابجديه وخفقت رآيات قلبها [illegible]
تتألم فاذكت نار الوجنات ومزجت صوتها بأرق النغمات
وكان اجتماع تلك الزينة المفصوبه على هذه الذات المحبوبه سببا
لهزال يرثى اليه وفتور يبكى عليه فمن نظر اليها ذهبت بلبه
وأخذت بمجامع قلبه ولقد ذادهم قبول وغمه حتى أشفقت منه
اخوان أمه وقالت له يا ولدى لا تمكن تلك الاباطيل من ذهنك
فيعود الحرمان منها بالاذاء على بدنك اليوم أعرفك من أنت

ومن أنا وما السبب الداعي لهذا العنا الذي نشأ لي من الزنا اما انا فاني قطيعة دهر وحليفة ضعف وفقر خرجت من بلدي بائسة وتغربت وجئت لا معيش في هذه الجزيرة واما ورد جنه وأمها فانهما من الاكابر ولهما خالة من أغنياء أهل الجزائر فلم يفهم قبول ما معنى الزنا وسأل امه هل هذه اللفظة من الفاظ النعنا فقالت له نعم لان اباك لم يأت بك الا في السفاح وما عقده لي عقدة النكاح وكنت عشقته وانا بكر عوان فأوقعت نفسي في ذنب لا يمحوه الا الغفران وجئت انت باسم باكورته وأول ما طلع من ثمرته فاحرمت به من نسبك الى ابيك وعمك وترتب على كفارة ذنبي حرمانك من عائلة أمك لاني بعد هذا هجرت بلدي وجئت هنا بك وحدي فصرت بامسكين عديم الاهل والاصحاب ليس لك غيري من الاحباب ثم بكت وولولت وسجلت وحوقلت فأمسكها بين يديه وضمها الى ذراعيه وقال لم يبق لي في الدنيا غيرك وليس لي خير الا خيرك وهذا سبب لان أحبك حبين وأقوم بخدمتك مرتين وما أعظم سراعليه أطاعتني والله لقد أرشدتني وعرفتني أجل ان هذا سبب الى نفور ورد جنه مني وداعيا لعدم سؤالها عني فان لها شهران وهي عازمة على السفر فلا شك ان قلبها مني نفر

قال ولما جاء العشاء وجلس الكل على المائدة كان جلوسهم بغير

فائده اذ كان لكل منهم شأن يغنيه وشاغل يشغله ويلهيه
يأكلون قليلا ولا يقولون قيلا ثم ما أسرع ما قامت وردجنه
أولا وجلست فى مكان غير بعيد فى الخلا فتبعها قبول وجاس
بجانبها ومكثت تراقبه ومكث يراقبها وانقضت عليهما
ساعة وهما ساكتان ولبعضهما ملتفتان وكانت ليلة نيره
ذات سماء مقمره ذائدة الاضاف والالطاف لا يرسمها رسام
ولا يصفها وصاف فدنزل البدر منها منزلة القلب ونشر
أشعته على الشرق والغرب فما يستره الا أثر ضباب أو بعض
سحاب كأنه حين تجلى على بساط الخضره بدر عليه من الفضة
بدره وكان الريح ممسكا نفسه والليل مطلقا عسسه فلا يسمع فى
الغابات ولا فى الوديان لا صوت انسان ولا صوت حيوان الا
مناغات الطيور فى أوكارها ومداعبتها مع صغارها مسرورين
من القمر وضيائه وسكون الجو فى جميع ارجائه وكانت
النجوم تسطع فى السماء وتعكس خيالها فى الماء فنظرت
وردجنه الى السماء وأطرافها وتطلعت حول الارض
وأكنافها فرأت على البعد نار قوارب الصيادين ثم كشفت
نورا وظلا فى المينا على جهة اليمين وكان النور نور فنار البلده
والظل ظل السفينه التى كانت لسفرها معده وما أخرها عن
القيام الا انتظار سكون الريح وظهور الوقت الملائم فلما رأتها

أذى شعر جلدها وتفتت كبدها فالتفتت برأسها لتوارى بكاها خوفا على قبول من أن يراها قال وكنت انا والست بدور واقفين جالسين غير بعيد عنهما وكنا من هذا الليل وسكونه نسمع كلامهما فسمعت قوله وحفظته كله

وذلك انه قال لها انى سمعت عنك بعض كلام وهو انك مسافرة بعد ثلاثة أيام اما تخافين من البحر وأهواله والموج وأفعاله فقالت له ان طاعتى لاهلى أهم والقيام بتلك الفريضة ألزم فقال أتتركينا لاجل خالة مبعدة وامرأة متعمدة ما عرفتيها وطول عمرك ما نظرتيها فقالت واحسرتاه كنت اودان أبقى هنا مدة حياتى ولا أفارقك الا عند مماتى لكن أمى لم ترتضيه وقد قال لى سيدنا الفقيه ان هذه ارادة الله والنا فى دهرنا ممتحنون فآه ثم آه والله ان ذلك لمن أشد الابتلى وأضر من البلا فقال من أجل ذلك عزمتى على البعاد والله لا مانع لذلك ولا راد فلا بد لذلك من سبب لم نذكر به وداعيانى السر أضمرتيه وهو حب المال فيا له من غرور باطل وجيد من الحلى عاطل وعما قليل تجدين أخا غيرى واذا ذكرت يوما فلا يهمك ذكرى وانك ستختارين احدا مثالك فى الحسب وكثرة المال والنشب وأنا لا قدرة لى على تلك الثروه ولا لى بمثل هذه الحظوه لكن ما أظن ان ترتاحى فى أى محل تنزليه او تجدى مدينة أحسن من تلك المدينه أو

ترى ناسا مثلنا ربوا على الالفه والمحبه وتمكنوا من العشره والصحبه
وكيف تعيش بين خارجا عن حضانة أمك التى اعتدت عليها
وكيف يكون حالها وقد طعنت فى السن ولم ترك نصب عينيها
وكيف يكون حال أمى وهى تحبك حبا جما ولا تحتمل غيابك
عنها يوما بل وماذا أقول لهما وهما يبكيان على غيابك
ويتأسفان على ما أصابك انك انى غاية القسوه وعلى خطر
من هذه الخطوه ثم لا أقول كيف يكون حالى وما مقدار ما تزيد
اللبالى وكيف اذا أمسى اليوم وأصبح ولم أرورد جنتك به
فتح وأرى هما تين الشجرتين اللتين غرستا منذ ولدنا ومكثتا ما
عشنا وما وجدنا وهما يشهدان لنا بالمحبه وطول العشره
والصحبه فاواه ثم اواه ولا حول ولا قوة الا بالله شعر

لين تبدلت بنا غيرنا * فحسبنا الله ونعم الوكيل

فيا ليتنى ورد جنه ان تقصدى غير قصدى أو تلتفتى لغيرما
حصلته من كدى ! وان كان لابد من الترحال كما اقتضاه الحال
فارجوك ان أركب معك فى السفينه وان انتقل بك من
مدينة الى مدينه فاساعدك على السفر وأقوى قلبك على خطر
البحر حتى اذا دخلت من البحر وجدنى صدرا تستريحين عليه
وقلبا تلتجئين فى كل الامور اليه * فانك اذا استرحتى على صدرى
وقف الغثيان البحرى أمارك نارا تندفى وعلاجا من كل داء

يشفى ثم أسير معك من بلد لبلد لعلنا نسعد ولم أزل معك بمنزلة الرفيق والخادم الشفيق فأملى ان أكون لك عبدا وان أزداد من خدمتك سعدا وجل قصدى ان أراك فى ثياب العز ترتعين فأصير بخدمتك أغنياء وأشرف الناس أجمعين ومهما تطلبين ان أبزل الروح تحت أقدامك فقد بلغك الله من ذلك أقصى مرامك

قال واختنق عند ذلك بالبكى واطرق برأسه على يديه وانكى ثم سمعناها وهى تبكى هى الاخرى وتصلى النار الكبرى وتقول ان سفرى للسعى فى المال قد أوجب لها الحال وذلك لانى أراك من فلاحة الارض قد انحنى ظهرك واعتل صدرك وعيل صبرك وأنت مكدود لغذاء عائلتين ومتعب نفسك على كلا الحالتين فاجعلت لى السعادة والغنا الا انقذك من هنا واريقك أيام الهنا حتى أكافى نعمك وأجازيها وأوفيك ألف مرة على كل مرة خدمتنا فيها وان السعادة وان بلغت مهما بلغت من الدرجات لا تعدل حبى لك فى وقت من الاوقات وأما نسبك الذى تذكرلى عنه فانى لم أر نسبا أطهر منه وانى وان خيرت فى الاخوان ما اتخذت غيرك انسان انك يا قبول أعز عندى من الشقيق والطف فى الروض من الشقيق وأنى وان كان لى فى فراقك أشد العذاب لاعمل ان تكون ناصحى فى هذا الباب

تعينني على سفري وتمكنني من وطري حتى يشاء الله فنجتمع ونحظى من محاسن الوصل ونبتدع هذا وأنا على عهدك ان سافرت أو بقيت وفي ملكك ان مت أو حييت فتصرف في كما شئت فاني لولا الحياء لخلعت برقعه عليك ولولا الحب لما وقفت بين يديك فلا تشوش ذهنك فان ذلك يعذبني وعلى فراش الهجر يقلبني

فلما سمع قبول هذا القول أسرع بضمها وحصرها كالودق لما ضمها ثم صاح مهللا وأشار قائلا

والله لا يمنعني منك ذو نشب * ولا أميرعني شأنه عالي
والناس لو حكموا طرا بفرقتنا * لما تصورتهم شيأ على بالي

انا والله لا أفترعنك طرفة عين ولو قضى الله علي بالحين ان سافرت فانا معك وان سبقت فانا أتبعك

قال فخرجنا كلنا اليه نجري وهو من شدة هيامه لا يدري فقالت له الست بدور يا ابني وأنت اذا تركتنا فمن ذا يعولنا فأجابها وهو مضطرب ومن الجنون مقترب ان دعوتني بابنك فقد صرتي أمها وأمي وجعلتني أخاها وجعلتها أختي وكيف تفرقين بين الاخوين وتبادرين بفصل التوأمين اما انك أرضعتينا وعلى ذراعيك حملتينا فعودتينا من الطفولية على المحبة وان لا يعد بعضنا من البعض وزن حبة

والآن ترسلينها الى أهل منكبرين بين أمم متبربرين أما تنظرين لقسوتهم كيف هجروك وهل أنسيت ما فعلوه فيك فان قلت انها ليست أختي وانك أمها ولستي بامي وانى مقطوع الحسب والنسب عديم المال والنشب قلت هي حسبي ونسبي وأمي وأبي فلا أعرف شيأ سواها ولا أعيش قط بلاها وكما تربينا وحدنا فكذلك لا نعدد عند الموت لحدنا وان هي سافرت فانا معها وفي كل مكان لابد ان أتبعها فان منعني الحاكم من السفر فلا يمنعني ان التي بنفسي في البحر شعر

قالت الاتلجن دارنا * ان أبانا رجل غاير
قلت فاني طالب عزة * منه وسبقي صارم باتر
قالت فان البيت عالي البنا * قلت فاني ووقه طاير
قالت فان البحر من بيننا * قلت فاني سابح ماهر

وعمسبك الله بالأقصى الامهات واغلظ النساء والبنات اسئل الله الكريم رب العرش العظيم ان البحر الذي تعرضونها لاخطاره وتودعونها بين موجه وتياره ان لا يردها عليك سالمة ولا يرجعها غانمة وان يغرقها و يغرقني معها وان رمال الشط تجمعني وتجمعها فتكون حسرة لكم على الدوام وكسرة لقلوبكم مدا الايام

قال فلما سمعت هذه الالفاظ وانه أغلظ كل الاغلاظ أمسكته

من يديه وقد شهدت علامة اليأس بين عينيه وانه خرج عن
الاصول وفقد المعقول والمنقول فكانت عيناه كالشرر وكان
عرقه يتقطر وهو يرتعش بركبتيه وقلبه يصفق بدفتيه فانزعجت
من ذلك وردجته وقالت له يا حبيبي وحق لذات الصغر وما
أصابنا على الكبر ومن بيده ان يجمع بين الاخ والاخت ويوصل
بين عاشقين شيء البخت لين بقيت هاهنا لا كون خادمة بين
يديك ولئن سافرت ورجعت لا أفضل أحداً عليك وأشهدكم
بذلك على أيها الواقفون بين يدى فأنتم علتم صغرى وخدمتم
كبرى والان ترون أدمعي وتعلمون بمقدار توجعي واقسم
لكم بالله العظيم رب العرش الكريم وبذلك البحر المقدور
على عبوره وبالقدر المكتوبة على جبيني سطوره ان الذى
قلته هو الحق وعين الصدق

فلما سمع قبول صوت حبيبته زال اغتياظه وانطفى شواظه
وزاد فى خشوعه وجرت غدران دموعه كالشمس اذ
طلعت على ثلج زال وانسكب ماء وسال فبكت أمه على بكاه
وضمته وقالت آه وأما است بدور فكانت فى غاية
الاضطراب واليم من العذاب وقالت لاجلدى على دلك
رأسى تصدعت وأحشاى تقطعت فلا حقق الله هذا الفراق
فانه لا رأى المزق أرجوك يا جارتنا ان تأخذ قولا عندك اليوم فان

لنا ثلاثة أيام لا نرى النوم
قال فسمعت أدمعي وأخذت قبول معي وقلت له ان ورد جنه
باقيه بيننا وانها لا تسافر من عندنا فكن على يقين مما هنالك
وفي غد أتكلم مع الحاكم في شأن ذلك وأما الآن فلا بد أن
نتركهم يستريحون لعلهم بعد طول السهر ينامون فسر بنا الى
داري فان الليل قد انتصف ونجم الهقعة في الأفق وقف فمشى
معي ولم يتكلم وبات في أرق لم ينم حتى ظهر الفجر وطلع وخرج
الى بيته ورجع
ثم سكت الشيخ عن الحديث لحظه لا ينطق بلفظه وقال الى متى
أطيل الشرح في هذه القصه وما الحاجة انما يتلك الغصه

شعر

انما العيش كله طرفان * طرف مقبل وآخر فاني
أشبه العيش كله كرة الارض * ووجه التشبيه في الدوران
فلنا في الضياء يوم نقضيه وتحت الظلام يوم ثاني

فقلت له بالله عليك الا ما أتممت هذه القصه الغريبه وعرفت
حال قبول في تلك المصيبه فان الحديث عن المواهب يلذ
مع ويبادمه وعن النوائب يدرب المرء ويعلمه
قال فلما رجع قبول من عندي وتركني وحدي رأى في طريقه
مريم الجاريه واقفه على صخرة عاليه تنظر للبحر بتعسر

ودموعها

ودموعها فى غاية التحدر فقال لها قبول أبى وردجنه لابد لوقفتك هذه عن انه فالتفتت اليه وهى تبكى وتنتحب وتشتكى فارتد قبول على عقبيه وعلامة اليأس بين عينيه وسأل عنها فى الميناء فأخبروه بسفرها وانها حين نزلت فى السفينة قامت بها وان السفينة قطعت نحوا من عشر فراسخ فى العرض حتى غابت عن الارض فرجع الى الدار وهو لا يعلم ثم خرج منها ولم يتكلم قال وكانت الصخرات المحيطة بنا تظهر على بعد انها عمودية الينا مع انها كانت مخللة باسطحة خضرا تقسمها الى مدرجات أخرى يتوصل بها فى الصعود الى أحجار رصوصه فتحت سفح الركن المسمى بالبوصه وكان تحت هذا الركن عن جانبه أشجار شاهقه محاطة بها وبخرقه وكان لا يزال الغمام يأوى الى هذه المحلات ثم ينصدر غدرانا فى جميع الجهات فتسيل الى بطن الوادى بانحدار هين وصوت عند السقوط لين ومن جلس هنالك كشف جزاء من الجزيره ورأى جبالا وأجمات كثيره ونظر البحر وجزيرة برب على بعد أربعين فرسخا جهة الغرب فصعد قبول على هذا الصخر المرتفع وقعد فى ذلك المكان المتقطع وصار يتلفت تلفت من أصيب بجنه حتى نظر السفينة التى سافرت فيها وردجنه فكانت على بعد بعيد وأمد مديد كالنقطة السوداء فى المحيط الاكبر أو كالنملة البيضاء فى البر

الا نفر وبقي طول اليوم يشاهدها وهو يظن بعد ان غابت أنه يجدها ومازال جالسا والرياح تعبث به وبالاشجار حتى ولى النهار

قال ولما ان رأيته هناك قاعدا وعلى تلك الصخرات صاعدا وكان سائدا برأسه على الحجر شاخصا بعينيه الى البحر تبعته وتعبت فيه حتى نزل وجاء الى أهله ودخل ومذ رأى الست بدور أقبل عليها وجعل يتشكى منها واليها ويقول لها على م فعلتيني وعن سفرها ما أخبرتيني يا ليتني كنت ودعتها وعند كريم استودعتها لاكون اليوم بارد القلب قليل الهم والكرب وأكون قد استمعتها فيما عن غير قصد اسأتها وأكون قد تزودت منها بنظره وبلمات غلى من ريقها ولو بقطره وأدعو الله ان يمن عليها بالاسعاد في بعيد البلاد فما أظن أنها تعود وان الدهر بها يجود ولما ان رآى أمه وأمها يبكيان وبأليم القول يعددان قال لهما مبكتا وبهما شامتا انظرا اليوم من يمسح دموعكما ويرأف بحالكما ثم انحنى وبكى وناح من حر الفراق واشتكى

شعر

وصار يجري من هنا الى هنا ● مبدد الراحة مفقود الهنا
ينظر كلما رآى كأنه ● يبحث عن آثار وردجنه

وكلما كان عزيزا عندها * أوسعه زيارة من بعدها

غيره

وقال لمعزاها وكن نظرنه * ليكن عنى فالطبا يا مطاعمى

رحلن بمن كانت ليكن برة * تمد بكفيها لكى المطاعما

ثم دخل معكفها الذى كانت تأوى اليه ونظر الى الطير وقد أقبلت عليه

فقال شعرا

لك الويل يا تلك الحمائم بعدها

فقد أطلعت من وحشتيها المواضع

فلا أمطرتك المزن بعد فراقها

ولا عطفت يوما عليك المراضع

ثم نظر الى الكلب وهو يقتص خبرها ويقتفى أثرها فتنفس الصعدا وبكى حتى أبكى البعدا

وقال شعرا

أواصبا كلب فلا تقتفى * مادمت فينا أثرا للحبيب

فانما شطت به داره * ومابقى غير البكى والنحيب

وانتى والله من بعدها * مابين حيرانى وأهلى غريب

ثم جلس على الحجر الذى كانا عليه فى الامس وقد كادت تزهق منه النفس ونظر فى البحر الى المكان الذى غابت فيه عن عينيه

ويبكي بكاء لا مزيد عليه

قال وكما عليه بالمرصاد في كل واد خوفا عليه من عواقب طيشه وسوء عيشه ولم تزل الست بدور وأمه يرجوانه ان لا يهيج بالهم بكثرة أشجانه وان يتسلى من أحزانه سيما الست بدور فانها اتخذت كلمات تقرب الامل وتزين العمل بان قالت له يا ابني يا حبيبي ويا زوج بنتي ونسيبي وحبرته بذلك على ان يدخل وان يقعد معهم على المائدة ويأكل فلما ان جلس معنا على الطعام لم يهنأ له زاد ولا كلام لان جلوسه كان قريبا من المحل الذي كانت تجلس ورد جنه فيه وكان خياطها انما يقعد فيه وهي لم تزل في مخيلته حاضره كانها اليه ناظره فصار يجردها من نفسه ويخاطبها ويقدم لها من الاطعمة ما يظن انه يحبها ومن علم انه في ضلال وانه يتحدث مع خيال قام من المأدبة حيرانا وأسال من أدمعه طوفانا

وفي اليوم الثاني هم بجمع أوانيها ولم الصحاف التي كانت تأكل فيها وما كانت تستعمله من الادوات لخاصتها وتستخدمه على حسب عادتها كباقات من الازهار وأكواب من جوزات الهند الكبار

وقد نزلت عنده هذه الاشياء بمنزلة الذخائر المصونه والجواهر المكنونه فكان يضمها الصدره ويقبلها وعلى الذهب والفضة

يفضلها

يفضلها

شعر

رأى المجنون فى البيداء كلبا * فقال له من الاحسان ذيلا
فلاموه عليه وعنفوه * فقال رأيته فى حى ليلى

ثم انه رأى ان كثرة شغفه تعود بالمضرات على الامهات وان لوازم العيلة تستدعى كثرة الاشغال وان لا فائدة فى الكسل والاهمال فيخرج مع العبد مرجان لاصلاح البستان قال وكان لا يعرف بالعلوم ولا يدرك المنثور ولا المنظوم فقصدنى ان أعلمه الكتابة فعلمته وان أفهمه القراءة فأفهمته فعدها منى أحسن منه لقدرته على مراسلة ورد جنه وتعلم الجغرافية ليدرى بمحل اقامتها وعرف التاريخ ليقف على اخلاق أهل بلدتها وقرأ علم الزراعة وأتقنه فصار لا يرى شيأ فى البستان الا أحسنه وكان اكتسابه ذلك ببركة العشق والهيام وسر الوجد والغرام فأصل العلم غوايه وسند الحديث روايه ولولا الفقر والافلال لما كانت الحكم ولا الامثال فانها للهموم مسليه وللانام مواسيه وان الله تعالى بدء بخلق الحب وجعل منزله القلب فكان سببا لارتباط الارواح بالذوات وداعيا لاتحاد المعقولات والمنقولات ونشر اللذات ولقد سئمت نفسه علم الجغرافيه لانه رآها غير شافيه اذ لا يتكلم فيها على البلاد

بالنسبه لاحوالها الطبيعيه بل بالنسبه لقواها السياسيه وانما
اختار كتب السير والحكايات ومطالعة القصص والخرافات
لما رأى انه يحكى فيها عن احوال الامم الماره وما وقع لهم من
الامور السارة والضاره فيرى منهم من أصيب بمثل مصيبته
ومن أحب حبيبة كحبيبته وكان لا يجمع الا الكتاب تلمان لما
فيه من وصف الرشاق وذكر محاسن اللذات الخلويه وعيشة
الرياض المرضيه فكلما استحسن شيأ من تلك الامور كان يقرأه
على أمه وعلى الست بدور وطالما أخذه الطرب من بعض ما
يراه فيهيم ويبكي وهو يقراه ولما ان اطلع على الكتب الادبيه
والنكات الوقعيه التي هي عبارة عن اخلاق الرعيه خاف على
وردجنه ان تفسد أخلاقها فتنساه وان تصدق ظواهرها تراه
فاشتدت حسراته وتصاعدت زفراته وأنشد شعرا في هذا
المعنى

لكنها خلة قد سيط من دمها
فجع وولع واخلاف وتبديل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت
ان الامانى والاحلام تضليل
فلا تمسك بالعهد الذى زعمت
الا كما يمسك الماء الغرابيل

قال

قال ولقد مضى لها نحو من سنة ونصف ولم يرد منها حرف ولم يصل لامها منها ظرف بل بلغها عنها انها وصلت بالسلامه وانه لم يحصل لها في سفرها أدنى سقامه ثم ورد منها خطاب بخطها ومعه ربطة من ربطها وكان هذا الخطاب يتضمن شرح حالها وما هي عليه من البعد عن أهلها ومع شدة احتراسها في التعبير فقد ظهر منه لامها انها في غاية من التكدير وها هي صورته بالحرف وصورة عنوان الظرف

ايتها الوالدة العزيزة الخالصة الابريزه قد أرسلت اليك فيما مضى عدة خطابات ولم ترد لي عنها جوابات فظننت انها أهملت واليك ما وصلت وأملي ان يصل هذا اليك فيقص قصصي عليك وان يرد رده الي فينشرح طيب أخبارك علي وبعد فطالما بكيت على فراقنا وكنت لا أبكي الا على مصائب غيرنا أما حالتك فانها عند وصولي اليها ودخولي عليها سألتني عما تعلمته وأي كتاب قرأته وكتبته فقلت لها اني لا أدري وما قرأت وما كتبت طول عمري فقالت لي اذا ماذا تعلمتي من يوم ولدتي فقلت لها تعلمت ان أخدم العائله وها أنا على خدمتك مقبله فقالت لي اني ولدت مع المساكين وتربيت مع الخدامين وفي الغد أدخلتني مدرسة البنات وأحاطتني بجماعة من المعلمات فقرأوني العلوم الاوليه كالنحو والحساب والتاريخ

والجفراقيه فلم أكتسب منها شيأ لاشتغالى بكم وعدم
التفاتى الى غيركم حتى أشيع عنى أنى من ذوات العقول
السخيفه والاديان الضعيفه وخالتى مع ذلك لم تزل بخيرها
تغمرنى وبالمبرور الظريف فى كل فصل تسترنى وقد أرفقتنى
بامرأتين لخدمتى وغيرت بسببتها نسبتى وأنت تعلمين ان
انتمائى لابى أحب شئ على قلبى اذ لايخفى ماقاساه والدى من
لاهوال وماتحمل على زواجك من الافعال وانما حبب الى
هذا الاسم الجديد والعلم الفريد لانه كان اسمك فى الشوبيه
ولقبك فى زمر البنوتيه ثم نى لما رأيت نفسى فى هذه الخطوه
رجوت خالتك ان لاتعاملك بالقسوه وان ترسل اليك شيأ
للاعانه لكنها أضمرت على الخيانه والاعانه فكان جوابها انك
فقيره يكفيك من العيش ماقل لانه ان زاد قتل ولما لم يمكنى
ان أراسلك على يدى أردت مراسلتك على يد غيرى فلم أجد من
يؤتمن فى هذا الامر المهم فقمت بدفع هذا المبلغ وبذلت غايه
جهدى وتعلمت القراءة لكتابه وحدى وقد أعانى الله
عليهما فى أقرب مده وأقصر عده وكان ارسال كتبى الاولى
على يد نسوتى فلاشك انهن أعطينها لخالتى فعمدت الى صاحبة
من بنات الكتاب ورجوتها ان ترسل اليك هذا الكتاب
فارسلى على اسمها رد الجواب فان خالتى منعتنى من المخاطبات

الخارجية خوفا على من بعض العواقب الرديه وحكمت على
ان لاينظر نى فى المدرسة غيرها وغير رجل عجوز من أنصارها
وقالت لى انه يهوانى و يميل الى و يتمنانى وأقول الحق أنى
لم يكن لى أدنى ميل اليه حتى لو سلم على لما رددت عليه وها أنا
يا أماه فى عيش من يرذل فى أذيال السعه ولم يجد قلسا معه فانهم
قالوا ان حملى الدراهم يؤدى الى أمور ذميمه ويؤل أمرها الى
عواقب وخيمه وأما ماعلى من الملبوس فهو للنساء اللاتى
فى خدمتى وربما تقاتلن عليه وهو على جثتى قصرت
مع ما أنا عليه من الثروة هنا أفقر مما كنت عليه فى بيتنا
لانى لا أجد درهما للنفقة ولا شيأ للصدقه ولما رأيت ان هذه
المعارف الجسيمه والتعليمات العظيمه لا تؤدى الى كسب
القليل ولا تورث ما يروى الغليل عولت على الخياطة التى
اكتسبتها منك وروبت حديثها عنك فهاك جملة من الجوارب
من عملى لك ولاقعوان ومنديل لمريم وطربوش لمرجان
ودونك بعض الباب وأبزار من فضلات الفاكهة التى تقدم لى
فى الافطار وحبوب كنت جمعتها وقت القسحة من البستان
وبعض من ابزار البنفسج والاقحوان وكم هنا من أزهار أجمل
من أزهارنا لم يكن لها عندهم بها اعتنا فلا شك انك والست
اقحوان من كيس تلك الابزار تنشرحان وانه يسركما أكثر من

كيس الدراهم الذى هو سبب الفرقه وأصل لما أنا فيه من
الحرقه وما أحسن ما يبلغنى عن شجر التفاح وانه نشر ظله
على زهر الافاح وانسجم مع الجوازات الهنديه فاذكر لى ما تألفينه
فى البلاد المغربيه هذا وقد أوصيتينى ان اشرح لك أحوالى
وأفصح عن الخير والشر مما جرى لى فاما الخير فلا خير لى ما دمت
عنك بعيده وأما الشر فاتسلى عنه باتباع نصيحتك المفيده فانك
أرسلتينى فى هذا المحل على ما أراد الله عز وجل شعر

وأكبر أحزانى وجودى بمعشر * اذا ذكروا شيأ تحاشوا ذكاركم
وان قلت شيأ عنكم يمنعونني * كأنهم يستكفون جوارکم

وحقيقة ان خادماتى اذا تسامرت معهن وورد شئ من ذكركم
عليهن يقلن لى تذكرى يا ستاه انك من بنات الاشراف فلا
تذكرى شيأ من كلام الارياف وما علمن انى أنسى نفسى
ولا أنسى دار هنائى وأنسى ومسقط رأسى وأن البلد الذى أنا
فيها هو الجدير بالنسيان فانى لم أر به انسان ولا من أشركه
فى أمرى وأحدثه عن حبكم الذى لا يفارقنى طول عمرى هذا
وأسأل المرة الكثيره بمرجان ومريم كار بيانى صغيره وان
تحسنى مثوى الكلب امان فانه لقينى وانا ضالة فى البستان
فتعجب قبول غاية العجب من انه لم يذكر شئ فى هذا الكتاب
وقد ذكر الكلب ولم يعلم ان كتب النساء وان طالت منها

القافيه لم يذكرن أعزما عندهن الا فى الحاشيه وحقيقة انها أوصت له فى حاشية الكتاب ببعض حبوب من البنفسج وبعض من أبزار العوسج وأرشدته على كيفية غرسها وعلى البقعة التى تصلح لها ثم قالت

شعر

زهر البنفسج كالمحب المدنف
تلقاه فى أوراقه بالمختفى
لكن رواجه الذكية ان نمت
نمت عليه لكل واش مقتفى

ثم أوصته كل الوصيه ان يغرسه حول القسقيه وقالت على العوسج انه غريب الاوصاف أسود الجوف ازرق الاطراف وأوصته ان يغرسه عند الحجر الذى كانا عليه ليلة السفر وان يسميه بحجر الوادع وآخر الاجتماع وكان هذا البزر فى كيس صغير الحجم ساذجى الرسم فنزل عند قبول بمنزلة العقد الفريد والطابع النضيد سيما وقد رأى عليه نقش حرفين معتنقين وهما مبدأ كل من الاسمين وانها نقشتهما بنفسها وطرزتهما من شعر رأسها فان كنت تدرى فى التنجيم فهما قاف وجيم

(القاف لقبول والجيم لوردجنه)

قال الناقل فما قرى كتاب نلك العذرى الا وسال دمع العاشقين

وجرى فسطرت لها أمها كتابا فيه وذكرت لها ان الجميع عليها في حيره ومسحت أجرفه من الدموع وفرط الزفرات والولوع وقالت

شعر

أقيمي كيف شئت بغير بعد * فاني من غيابك في شقاء
واني لم أزل مذ غبت عني * مقسمة الفؤاد على اللقاء

ثم كتب لها قبول كتابا طويلا رتبه ترتيبا ورتله ترتيلا وذكر لها انه مشتغل بغرس ما أرسلت وانه سيجعله على حسب ما فصلت وانه يوافيه بين نبات أوراق باوافر بقيه كما انها ألفت بين أسمائها بالاحرف التعليقيه وأرسل لها من ثمر جوز الفسقيه مما بلغ الانتهى في النضوجيه وانه لم يرسل اليها شيأ من أزار الجزيره لتأخذها على المجئ غيره ثم تضرع وابتهل وسألها المجئ على عجل فقال

شعر

أرجوك ان تعجلي الحضورا * انتغمي في أهلك الاجورا
عودي الينا وأرحمي منيما * لم يرقط بعدك السرورا

ثم اهتم بعد ذلك غاية الاهتمام وغرس الايزار على التمام فكان

زهر البنفسج والبلاب يشبه حالة ورد جنه فى الغياب ووجه الشبه ان ازهارها كانت تتوارى فى الاوراق ولا تكاد تظهر على الاطلاق ولسبب اتلف أبزارها فى مدة السفر ولان هوا القطر عليها تغير جاء زهرها قليلا ونباتها عليلا ؛

وبعد فالحسد الذى هو نغيص السعاده وأغلب قبائل الجزائر قد اعتاده ترتب عليه انتشار أقوال يبنى عليها تعب قبول وذلك ان أهل المركب التى ورد فيها خطاب ورد جنه زادوا فى اللجاج وأشاعوا القول بانها مشرفة على الزواج حتى انهم ذكروا اسم بعلها وقالوا انها من أهله وانه من أهلها وقال بعض من يأتفك ان هذا الزوج لمن بيت الملك وقال البعض انها تزوجت و بالفعل دخلت وانبنوا ذلك دون مين وقالوا انهم راوه بالعين فما صدقهم قبول فى أول الامر محتجا بان مراكب التجار تحمل الكذب كما تحمل التمر لكنه لما سمع ذلك من بعض المترددين عليه الذين يرجعون فى أغلب أمورهم اليه وان غاب يسألون عنه وهم فى الواقع يسخرون منه صدق مقالتهم واستصوب عبارتهم سيما وانه قرأ فى بعض الخرافات او أكثر السير المؤلفات ان كيد النساء لا يخفى وان الرجال منهم على شفا وان أول الهوا مزاح وان الفساد يعترى الصلاح وان ما يكتب من ذلك فى الاوراق ليس الا عبارة عن

الاخلاق خاف على وردجنة وهى وحدها ان تكون قد نقضت عهدها فانكسف باله وزاد بلباله وتشوق كل التشوق اليها وندم كل الندم عليها سيما وقد ورد كثير من السفن من بلدها ولم يلق فيها كتابا جاء من عندها

قال وكان هذا المسكين من شدة اضطرابه وفرط عذابه يكثر التردد على ويأتى فى أغلب الاوقات الى ليعلم منى هل صحيح ما يشاع أم هو من باب الكذب والاختراع وكان منزلى كما ذكرت على بعد ميلين من هذا المكان على شاطئ غدير من الغدران وهناك قضيت عمرى مشتغلا عن الناس بأمرى لا خادم لى ولا عبد ولا امرأة لى ولا ولد لان الرجل اذا فاتته امرأة فى الاخلاق حسنى وهذه نادرة من نوادر الدنيا وشكى من الناس ومعاشرتهم وتمرمر من سوء مجاورتهم وجب عليه ان يسعى فى العزلة عنهم وان يجتهد فى الفرار منهم ومن المشاهد ان الذين ساء حالهم اما من رأيهم او من جور حكامهم نفر كثير منهم الى لوحده و بدل بالراحة الشده كقدماء المصريين فى زمن انحطاطهم وكاليونان فى آخر ملكهم وكالهنود وأهل الصين وكمتأخرى الارروام والطليانيين وكاغلب الامم المشرقيه وكاهل أورو با الجنوبيه والعزلة تسوق الرجل الى السعادة الخالصه وتبعده من الجمعيات المنغصه فاجتماع العالم لا يخلو عن أمور باردة وأوهام فاسدة فتكون النفس

دائما

دائما فى اضطراب من اراء غير سديده واشتغالات ليست بمفيده
ولا يخفى مادة الطمع المتسلط على ابن آدم فى جميعاته وان الاخ
يقتل أخاه فى حاجاته أما العزلة فليس فيها شئ من تصورات هذا
الطيش التى هى سبب فى تكدير العيش بل تشتغل كل نفس
بمنافعها وتتفكر فى الطبيعة وصانعها كسبل خرق الارض وقت
سقوطه وخرب الروض عند هبوطه ثم انحدر فى محنية منعكفه
فرسب ما فيه من الاتربه المتقذفه ولما خف قوامه وشف قوامه
صفى بعد التكدير وراق بعد التعكير وعكس أشعته على ما حوله
من النبات الاخضر والسماء الانور وهكذا العزلة تنظم الارواح
كما تنظم الاشباح ولقد رأينا طول المده فى أعمار أهل الوحده
وذلك مثبوت مشهود عن براهمة الهنود ونهاية الامر
فهى على مذهبى أصل فى السعادة البشريه لان المرء اذا لم يتخذ
لنفسه شيأ منها فى أموره الداخليه ليكون حاريا من الاراء
الاجنبيه استحال عليه ان يتلذذ بشئ لا بحاله أو يستقيم فى
عيشته على أى حاله هذا وليس القصد ان ينفرد الرجل بنفسه
وان يهجر بقية أبناء جنسه فقد غالت الامثال وصدق من قال

شعر

العز فى العزلة لكنه ●

● لا بد للناس من الناس

وذلك للزوم الضروريات وارتباط الناس بعضهم فى الحاجات
فان حاجات المرء تخوجه للغير كما يحتاج الى الحب الطير ثم باقى
معيشته على مولاه الذى صوره وأنشاه وقرن بالعناصر أعضاه
خلق الرجلين ليمشى بهما وخلق الارض والتراب لهما وقرن
تنفس الرئتين بالهوا وخلق العينين للنور والاضوا وجعل كل
شئ للاخر قرينا مطابقا والغا موافقا ثم خلق الروح من
امره فترى المخلوق يردها اليه بعد انقضاء عمره
فمن ثم التزمت ان أعيش عن الناس بعيدا منفردا وحيدا فانى
كنت خدمتهم فى سائر البلدان واتخذت منهم أصحابا فى كل
مكان وما تركت قسما من أقسام الارض الا سكنته ولا رجلا
الا اختبرته وامتحنته حتى علمت ان لا أحد منهم يعول عليه
ولا يلتجأ فى الامور اليه فاخترت هذه الجزيرة لقلة سكانها
واعتدال الهوا فى جميع أركانها ولبعدها عن موارد العالم
الاكبر وخروجها من دائرة المحشر وبنيت لى صومعة فى الغابه
تحت شجرة مستطابه واقلعت قطعة من الارض وحدى
وبذلت فيها غاية جهدى فكان فيها وفى النهر كفاية لحاجاتى
ونهاية لتمنعاتى ووقفت على ذلك بعض من الكتب المهذبة
للاخلاق المسلية لهموم الدنيا بالاتفاق

شعر

نصرت بها استخدم الناس بعدما *
* وردت زمانا ماؤهم ثم عفنه
وما سبب الهجران الا لانني *
* أطلت اصطحابي بالورى وعرفته

وطالما قرأت في تلك الكتب أوصاف أناس دأبهم الشهوات والانهماك في اللذات فاقيس نفسي بهم وامثل عيشي بعيشهم فارانى على جرماني منها أرغدهم عيشا وأقلهم زيفا وطيشا فكنت كمن نجى من الغرق في مركب انكسر بعد ما انخرق والقي به البحر على صخرة عالية فأمن من كل داهية وبقي عليها ينظر الى غيره يختبط البحر وهو على غاية من الخطر ولما انقطعت من الناس وانقطعوا عني وصرت لا أدنو منهم ولا يدنون مني أصبحت أرثي لحالهم وأتشوق لخيالهم فما قابلني مسكين الا كنت في معونته ولا رأيت جائعا الا قمت بمؤنته ولم أر في طريقي الا كل مؤدب أو حسن الاخلاق مهذب وكم عثرت بكثير ممن أعمتهم الامال الدنيوية وغرتهم الاماني الخيالية يجردون من العزلة ما يوافق لذاتهم ويلائم شهواتهم ثم يتهمون أنفسهم بانها أضلتهم وفي مهاوي الغرور أوقعتهم وطالما هممت بتعجيب العزلة لاخرين من بعض الفقراء والمساكين فلم أر الا من أعماه هراطيشه وأصماه حب عيشه

فكانوا يصغون لما أقول أولا طامعين ان يحصلوا منه مالا ونيلا فاذا رأوا ان سعيي بضد مامولهم ارتدوا على أصولهم ولاموني على عدم اتباعهم

ولست بناظر الى جانب الغنى
اذا كانت العلياء في جانب الفقر

وطالما عنفوني على انفرادي وبزلوا غاية جهدهم في ارتدادي زعما بانى كون معهم أنفع للناس وأقرب للاستئناس

شعر

وما علموا أنى اذا ملت مرة
لهذا وهذا لم أجد صاحبا عندي
ولم أر في غيري رجاء ولا وفا
فجردت نفسي ثم عشت بها وحدي

وكنت وأنا في هذه الحالة الهنيه والعيشة المرضيه أمثل لنفسي جميع التقلبات التي مضت والعلاقات التي مرت وانقضت كتداخلي عند أهل الثروة والامره وتعلقي باللذات والشهوه والتشبث بالاراء المختلطه وتمسكي بالاقوال المخبطه فأرى مثل كثير ممن يقتتلون عليها ويسعون بجهدهم اليها كمثل أمواج البحر تزاحمت وعلت فوق بعضها وتراكمت فاذا أنت لا ترى الا تلاشت وتصرمت

شعر

شعر

فسلمت جسمى باثاره * لنهر الليالى وتباره
فلا بد ينصب بى فى محيط * أحاط الانام بأقطاره
وجردت نفسى من غيها * تجرد محتقر كاره
وقمت أشاهد صنع الاله * وأنظر فى حكم أقداره
وغادرت دارى فى حبان * أرى نعم الله فى داره

قال ولم تكن صومعتى فى مكان ترى منه عجائب المخلوقات التى ترفع قدر التصورات فتنفذ من العالم السفلى وتصعد الى العالم العلوى بل لوضاعتها عندى وعلو أفكارى كنت أنظر فيما صنع البارى وأجول بفكرى فى أمور غير ظاهره فارى من مخلقى أشياء باهره

وأما وصف البقعه التى كانت فيها الصومعه فذلك ان النهر كان يسلك أمامى على خط مستقيم فيرسم خليجا مظللا بالشجر الجسيم وكان الشجر متفاوتا فى الساق متباينا فى الاوراق كالشبر والزيزفون والبلخ والزيتون وغيرها من ذوات السوق المرتفعه والعسيبات المتنوعه كانها بستان من فوق بستان أو ريحان غرس فوق رمان وكم من روائح أزهار تخرج من تلك الاشجار ان مر بها أحد علقت بلباسه أو خطرت بها النسيم عطرت ذكى أنفاسه فاذا كان فصل

الربيع رأيت الارض مروجا ونظرت الى أبيض أزهارها
فحسبته ثلوجا وان جاء فصل الشتاء أقبلت عليك طيور شتى
وباهت بريشها أوراق الشجر وكادان لايحصرها النظر فمن
ببغاوات تتكلم وحمائم تترنم وعنادل تهدر وشحارير ترمز
أما القمرية فناهيك بأسرابها وداعيك الى الفرجة على العابها
فانها تارة تتعلق بالغصون وتعبث كما يعبث المجنون وتارة
تتعلق بأذنابها فى الفروع وتتدلى فى الهوى بغير وقوع وتنقل
صغارها من شجره الى شجره بالخمسه والسته والعشره
فى أمن من الصياد وحبائله وبنى آدم ورزائله
ولاتسمع هناك غير أصوات الطيور والحان البلابل والشحرور
أو أصدائها تنعكس على بعد فى الغابات فتعيد أحسن مايكون
فى النغمات أو خرير جدول يقع على الصخرات فيتكسر بين
بعض الشلالات حتى اذا نزل فى الوادى صار كالمرآه وأظهر فى
وجهه وجه من رآه ومن كثرة صفائه ورقة مائه لايزال
النسيم يبل فيه أذياله ويمر بها على الحر فيقطع أوصاله وينشر
الخضرة فى كل محل ولو على رأس الجبل وهناك صخرة فريده
وعن أصوات المياه بعيده اذا جلست عليها كشفت لك عن
هذا المنظر البهى فتسمع ماتحب وترى ماتشتهى
قال وكنا اذا اشتد الحر ويبس الجو وافقر ذهبنا عند

الصخره

الصخرة المذكوره وتفديناهناك على أحسن صوره
وكانت وردجنه من طيبتها اذا أكلت ثمرة حفظت بذرتها
وغرستها وقالت ان أصل الانجار ابزار ولابد ان يأكل من
هذى طيرا ورجل مار فاتفق لها يوما وهى عندى ان أكلت
ثمرة من ثمر القاون الهندى وبعد ان أكلتها غرست كل الابزار
فنبتت بعد ذلك منها عدة اشجار وكان من جملتهم شجرة من
ذوات الاثمار ولما سافرت وردجنه كان ارتفاع تلك الشجرة
قدر ذراع فامضى عليها سنتان الا وصارت تبلغ عشرين قدما
فى الارتفاع ثم أخرجت ثمرا كثيرا صغيرا منه وكبيرا فرقبول
ذات يوم فرآى شجرة منهن كبيرة قد طلعت من بزرة صغيرة وهو
يعلم ان حبيبته هى التى زرعتها يوم أكلت الثمرة وغرست
بزرتها فحزن على انها غابت حتى صارت الابزار اشجارا وخلفت
الاشجار أثمارا وفى الواقع ان الاشجار التى نراها كل يوم
لانشعر منها بسرعة مايمر من أعمارنا ولانعلم ونحن معها كم
مضى من أيامنا اما التى نغيب عنها ثم نرجع لها بغتة نعلم من
نموها مامضى من أيامنا البتة وكذلك من غاب عن وطنه فرجع
فلم يجد أحدا من أنداده بل رآى أولاده أو أولاد أولاده علم بقدر
مامضى من عمره وصار عندها متحيرا فى أمره ومن ثم تنبه قبول
لطول غياب عرسه من كثرة نمو هذا الشجر بعد غرسه فصار

تارة يميل الى قامته لان ورد جنته غابت من يوم ذرعه وتارة يراه أثرا من آثار خبراتها وعلامة ظاهرة على مبراتها فيحن اليها ويتعطف عليها وينشدها

شعر

أيا رعاك الله يا ذى الشجره • يا ليت منك فى حمانا عشره
انك عندى أشرف الاثار • وأحسن النبات والاشجار
فلا لقاك الدهر يوما الا • حباك أهلا ومكانا سهلا
ودمت كالحلى على النبات • فأنت غرس أشرف البنات

قال وكنت بعدها اذا بحثت عن فضول ولم أره وجدته دون شك تحت هذه الشجرة واتفق ان رأيته ملقى تحتها يوما مملوءا هما وغما فعقدت معه محاورة يطول شرحها ويملو صرحها فبرأنى أرجوعلى كبرسنى ان يغفر لى هذا التطويل الذى حصل منى فانى كثير الاشواق قريب من الدنيا للافراق وقد رتبت تلك المحاورة على السؤال والجواب وجعلتها كتتمة هذا الكتاب فى سلامة من الذوق وكثرة الاداب

وذلك

وذلك انه قال لى

انى لا تجرع مرارة البين فان وردجنة قد سافرت منذ سنتين وشهرين ولها ثمانية أشهر لم ترد عنها خبر وما وقفت لها على أثر ولا يخفى انها غنية وأنا فقير فلا شك انها نسيتنى من باب التحقير لها فقد عزمت على السفر الى الجزائر لادخل فى خدمة أحد الاكابر وأجتهد حتى أغتنى مثلها لاجل ان خالها تزوجنى بها لانى أكون قد صرت أميرا وملكت مالا كثيرا

فقلت له

يا أخا العرب ألم تقل لى انك لا حسب لك ولا نسب

فقال لى

نعم لكنى لا أدرى ما الحسب وما كيفية النسب انى ما رأيتنى أقل الناس حسبا ولا رأيتهم أكثر منى نسبا

فقلت له

ان لم يكن لك ذلك فلا تصل فى الدولة الى خدمه ولا تصير من أهل الشرف والكلمه

فقال لى

ألم تقل لى ان فى الجزائر يصل الانسان الى أعلا الدرجات وذكرت لى كثيرا ممن حصلوا الخيرات وظهروا بالمظاهر بعد ان لم يكونوا شيا واشتهر أمرهم وكانوا قبل ذلك نسيا منسيا وأرانى الان

توجب شكواى وتضعف قواى

فقلت له

نعم قلت لك عما سبق وغابر الازمان ولقد تغيرت الاحوال الان فصار كل شئ يباع باثمان واختصت المزايا الجليلة ببعض عائلات قليلة حتى حصروا الخير بينهم ولم يتعدوا به غيرهم وصار الملك كالشمس وهم حوله كالسحاب حتى توارت بالحجاب فمن المستحيل ان يحصل لك شعاع من أشعته أو تلحظك عين عنايته واعلم يا ولدى انه مرت أيام أحسن من هذه الايام كانت بها أشعة الملك تصل الى الرعية على الدوام فتقدمت فيها المعارف وانتشرت العلوم وانتصف من الظالم للمظلوم كالارض الجيدة ان أفاحت أجادت وعلى سائر النباتات بعصارتها جادت لكن مثل هؤلاء الملوك الاكابر لا يوجد الا فى النادر وأما العامة منهم فانهم يسلمون الامر لمن حولهم

فقال لى

وما أدراك لعلى أجد أميرا يحملنى على كتفه ويدخلنى تحت كنفه

فقلت له

ان رمت الحماية عند الامرا أو الدخول فى كنف الوزرا فلا بد لك من السعى فى مرضاتهم وارتكاب ما يشفى غليل لذاتهم

وأنت

وانت لا تصلح لذلك أبدا ولا تقدر ان توافق منهم أحدا لانك رحيم رؤف كريم النفس عفوف

فقال لى

انى بصدقى وأمانتى وحسن سلوكى فى تأديبه خدامنى استحق ان يتخذنى بعض الامراء خادما أو أكون له منادما وهذا فى تاريخ الاقدمين رأيته وعليك قريته وعندك رويته

فقلت له

اعلم يا ولدى ان أكابر الرومانيين وامراء اليونانيين كانوا يحترمون الفضل وأهله ويعظمون ذوى المعارف باجمله فخلف فى أيامهم خلف من مشاهير الرجال وجماعة من الابطال ممن أجادوا الفنون والعلوم وأتقنوا المنثور والمنظوم ولم أر أحدا منهم اعتنى بشانه ولا نظر الى علو مكانه فصح قول القائل

شعر

من كان ذا فاقة مال الزمان به
ولا يجد الا من حوى مالا
لو كان للكلب مال مع نجاسته
للقبوه بكلب الدين اجلالا

فقال لى

ان لم أجد أميرا انتمى اليه وأعول فى أمورى عليه أدخل فى

طائفة من طوائف المستخدمين أو اتعلق ببعض الملتزمين
واتخدمهم مهما أستطيع وأحبب نفسي الى الجميع

فقلت له

حينئذ تصير كبقية الناس الذين يفرطون في أعراضهم حبا في
الاكياس

فقال لي

كلا لا أسلك الا بالصدق ولا أقول الا الحق

فقلت له

ان كان كما تذكر فانك تصير بغيض الكل قرين الذل فان الطمع
أعماهم وحب المناصب والرياسة أصماهم يحملون صروف
الهم محبة في الدرهم

فقال لي

ما أسوء احوالي وأكثر أحزاني أهكذا كل شئ يأباني وقد
حكم على ان أقضي هكذا حياتي وان لا تقضى لي بعض حاجاتي
قليل المني والمنه مبعدا عن ورد جنه ثم قطب وعبس وتأوه
وتنفس وظهرت عليه علامات اليأس

فقلت له

توكل على الله في كل حين ولذ بعباده الصالحين فان بيوت المجد
وولاة الاحكام والعامة والملوك والخدام كل له عيب ظاهر

وكيد

وكبد قاهر فان خدمت احدا منهم فلا بد لك من العيوب وارتكاب الذنوب وامار بك وعبادة الجليله فانهم لا يطلبون منك الا الفضيله

ولاى شئ تريد الامتياز عن الناس اما فى الكلمة واما فى اللباس ان هذه الخصلة ذميمه وطريقة غير مستقيمه لانها لو كانت طبيعة فى سائر الافراد لاصبح كل العالم أضداد ولاقتتل الرجل مع عرسه فى داره وجار الجار على جاره فقم مقامك واستقم حيث أقامك وان بقى فيك بعض من المروه او شئ من أوصاف أهل الفتوة فلا تمل لان تكون من الاكابر فانهم يسلمون قيادهم للاصاغر وان الاصاغر تعيش تحت كنفهم بالسعى فى غشهم وتلفهم ليجدوا عيشا رغدا ويجمعوا مالا لبدا وبلدك التى أنت بها وصنعتك التى انقطعت لها تجد بها الرزق الكفاف والعيش مع العفاف ولا حاجة لك بالغش والتمليق والذل والضيق كما هى طبيعة لذوى العقول السخيفه الذين يطلبون الدنيا على انها جيفه انك ما دمت فى حالة لا تخرجك عن الشرف ولا تقربك من التلف فانك لا تزال من الصالحين ولا تنفك عن سنن المتقين فاياك ثم اياك ان تتشبث بما يشين دينك ودنياك وأحمد الله على السلامه وانك لا تستحق الملامه انك بين أهلك وأحبابك وعشيرتك وأصحابك لفى عيش

تحسدك عليه الامرا وتغبطك الملوك والوزرا

فقال لى

نعم لم أحتج الا لورد جنه فان بعدها نار وقربها جنه وهى حسبى ونسبى وأمى وأبى وحيث ان خالتها تريدلها زوجا غيرى من أهل الشهره وأصحاب الثروة والمقدره فها أنا عزمت على الانهماك فى المطالعه وادراك ما فى الكتب النافعه لانها لا تفنى ولا تنفد وان اسم صاحبها مخلد ومن تحلى منها بلباس فقد استوجب احترام الناس

فقلت له

نعم لكنها لا تكتسب الا بعد كد وتعب وعطش وسغب وان المرء يكون بها هدفا للقذف وعرضة للطرح والحذف ومن سلط عليه معاصره فقد قل ناصره فان العالم يقتفى أثر العالم كما يسلط الظالم على الظالم لان كلا منهم لا يعجبه غير عقله ولا يستحسن قولا غير قوله وأما قولك انك بالكتب تنفع ويعلو ذكرك وترفع فالزراعة من تلك الكتب أبدى وأقوم طريقا للمنفعة واهدى لان من أنبت سنبلة فقد أتى بالعجاب وخدم الناس أكثر ممن أهداهم كتاب

فقال لى

صدقت فان شجرة القشطة التى غرستها وردجنه كانت منها

لاهل هذه الجزيرة أعظم منه ولاشك انها تبقى على ممر الحقب وتنفع الناس أكثر من خزانة كتب ثم هجم على الشجرة وضمها لصدره وصار يقلبها وهو متحير فى أمره

فقلت له

واعلم ان الكتب التى تأمر الناس بالاستواء فى المحبه وعدم تجاوز الفضيله مثقال حبه كالاحاديث النبويه والكتب السماويه فطالما اتخذها الملوك وسيله لنفاذ مقاصدهم وجعلوها سلما لمكايدهم وكم ظلم الناس بعضهم احتجاجا بها واستنادا فى الاسباب عليها فمن يأمن بعد ذلك ان يتقرب الناس بكتاب ويكون فى فعله قد أصاب أما كفى ماجرى لاغلب الادبا واكثر الوعاظ والخطبا فهوميروس على جودة شعره كان يسأل طول عمره وسقراط الذى وعظ اليونان بعلمه وعمله سم واحرم من أجله وأخذ أفلاطون تلميذه أسيرا وما أمر باسره الا ملك كان يحبه كثيرا ولا تنس فيثاغورس الذى نشر الفضل بين الناس والحيوان فأنه آل امره الى ان احرق بالنيران وهكذا اغلب مشاهير الرجال وأكثر الفحول والابطال قد بلغنا عنهم ماتجرعوا وان الناس على سوء معاملتهم أجمعوا وذلك لتظاهرهم لديهم وكثرة التردد عليهم فان قيل عن أحدهم سعد جده وارتفع شأنه ومجده فلانه كان عن الناس مبعدا

ومن معاصريه منفردا ومثله كمثل التماثيل التي توجد في خرافات الدونان والاثار المدفونة من قديم الزمان ماوقاها من لكسر الاموار انها في التراب واحتجابها عن الناس بحجاب فها قد علمت انك اذا أردت الشهرة بالادب لتستغني عن نشب والنسب فالتزم العفة والشرف على انك تكون بهما معرضا للتلف وحاشاك ان تستميل الاغنياء بمعلومك فانهم لا يعبؤون بك ولا بمعلومك لانهم لا يلتفتون الا لما يكسب الشهرة والمظاهر والتقرب من الملوك والاكابر واعلم انه في زمن لا يعتنى فيه الا باللذات وتحصيل الاموال وان المعارف والفضائل لا مزية لها في كل حال ولقد كان للمعارف شأن في المحافل والمجالس وقدر عظيم في جميع المدارس والان لا وجود لها الا في الدفاتر ولا ذكر لها الا في المساكر وهذه الكتب وان كانت عند الناس لا قيمة لها فلم تزل حافظة مقدارها لان فيها أشعار الفضل الذي هجر وتسلية لكل فاق وضجر وارشاد الامة وتنويرا وتفكيرا للملوك بالحق وتذكيرا وان درجة التأليف أعلى الدرجات وأرقاها وأحسن ما من الله به على عباده الذين اصطفاها فان من ألف كتابا فقد سلاه وشرح صدره وهناه سيما اذا علم انه يبقى للذراري المقبله وانه ينقل من عائله الى عائله فيكون مرشدا

للضالين وواعظ اللاظالمين وانه بعد طول هجرانه وكثرة
تركه ونسيانه يشتهر أمره ويعلو شأنه وقدره ويخلد
خلودا تغنى جنبه الملوك وآثارهم وتخرس عنه متملقوهم
وشعارهم

فقال لى

انى لا أطمع فى هذا الفخر الا لانشره على ورد جنه وأجعل ذكرها
به يرن اعظم رنه حتى تسير بذكرها الركبان وتصير به سيدة
البنات والنسوان وأنت يا أبنى بالله عليك وحق خضوعى
بين يديك ان كنت تعلم طرفا من الغيوب وانه سيجتمع
المحب بالمحبوب فحدثنى بالخبر الصحيح وادخل على التفريح
فانى لا أريد ان أطلع على الغيب الا لاعرف حظى معها بلا ريب

فقلت له

ان كان الانسان يعلم بما كتب عليه وأطلع فى الغيب على ما
يؤل امره اليه ورأى المصيبة عليه قابله والبلية فوقه نازله
زاد طيشه وتنغص عيشه فلا يجوز التبحر فى الاشياء التى نراها
فانما علمها عند من براها وان الله تعالى كما وهبنا العقل نتدارك
به الاحتياج فقد خصنا بالعجز والضعف منعا لنا من اللجاج

فقال لى

حيث انك ذكرت لى ان الانسان بالثروة يكسب الشرف فيها

بورد جنة ولو فى الحلم أما ان كان لا بد من الفراق ولا سبيل الى التلاق فقل لى هل هى على عهدى حافظة لقديم ودى وهل لا تزال تحبنى وهى بين فريق من ندماء السلطان وهل تعود الى وهم يتزاحمون عليها فى كل آن

فقلت له

يا ولدى انها لا شك تحبك وغاية منالها قربك والدليل على ذلك انها من أعقل البنات وأجل النساء المخدرات فلما سمع ذلك أقبل على وقبلنى بين عينى

ثم قال لى

لكنى قرأت فى السير ووقفت على الاثر فرأيت ان النساء خائنات أصحيح ذلك أم بعد من الخرافات

فقلت له

اعلم انه فى كل حيله وكل شيعة ومله متى ظلمت النساء الرجال جبرت النساء على الاحتيال

فقال لى

ابن لى ذلك فانى ما فهمته وما حققته وما علمته

فقلت له

نعم ان الظلم من عدم الخيار وقلة الاختيار فانهم يزوجون البنت قبل ان تستشار ويعطون الشابة للرجل المسن

والزكية العرف المنتن

فقال لى

ولاى شئ لا يزوجون بجانب فيعطون الشابة الشاب والطيبة الطيب

فقلت له

لان أغلب الشبان لا تملك امرها لا تمكن لزواجهم وانهم لا يجمعونها الا فى أيام كبرهم وامرجاجهم فاذا كانوا صغارا سموا فى اتلاف جاراتهم واذا شاخوا فلا يقدرون على لوازم نسائهم فكما يخونون وهم صغار فكذلك يخانون وهم كبار وهكذا من خان يخان وكما يدين الفتى يدان وقد قضى الله فى جميع البلاد التى لا يقسم فيها الخير بالتساوى على العباد ان تكون هذه منافيهم وان تؤل الى مثل ذلك عوائدهم كالروض لا يعيش فيه النبات الصغير تحت ظل الشجر الكبير وتصارى الامر فان البلاد لا تخلو أهلها من المساوى حتى يقسم الرزق عليهم بالتساوى

فقال لى

وما احوج المرء لكثرة الزواج ليتأهل الى الزواج

فقلت له

ليعيش غنيا عن العمل مستغرقا فى بحار الكسل

فقال لى

بئست هذه طبيعه فانها والله شنيعه أما أنا فعندى الشغل أحسن لان فيه صحة العقل والبدن

فقلت له

ان أهل المدن من يشتغل منهم بالحرف فقد أضر عندهم بالذوق والشرف حتى انهم عابوا الاشتغال بالفلاحه وفضلوا عليها الملاحه وعندهم كل خادم ولو ملاح أحسن من رجل فلاح

فقال لى

وهل الصنعة التى يقتات منها الانسان تكون محتقرة فى البلدان

فقلت له

انه يطول على من شغل الخلوات على سمن لطبيعه ان يقف على عيوب أهل المدن الوسيعه فان الطبيات فيها تستقصى وأما السيآت فانها لا تعد ولا تحصى وكل من الجمال والفضيلة والسعادة غاية ونسبه وليس للقبح والرذيلة والشقاء عندها حسبه

فقال لى

ان الاغنياء على ما تقول سعداء لا يمنعهم شئ مما يريدونه وانهم يتلذذون كثيرا مما يحبونه

فقلت له

ان أغلبهم لكثرة انهماكه فى اللذات وتقلبه فى الشهوات قد صار لا يشتاق اليها لكثرة ادمانه عليها فان الراحة لا تلذ الا بعد التعب والاكل لا يطيب الا عند الجوع والشرب لا يحلو الا مع الظمأ والنور لا يشتاق اليه الا ذو العمى وان لذة الوصل لا تكون الا بعد الهجران وحسن الشبع لا يأتى الا بعد الحرمان ولما كان الغنى دافعا لجميع الاحتياجات البشريه صارت الاغنياء لا تلتذ من شئ بالكليه اذ تمام نفوسهم من الاشياء الوافره ومن الكبر المتولد من المقدره فان حصل لهم ادنى حرمان أو بغض نقصان أبى كبرهم الا بغض وتكدر عيشهم من البغض ولا يملكون ازالة هذه الضرر عنهم لانه فى الاصل ناشئ منهم فمثلهم كالورد وشوكه فان الورد يلتذ به زمنا يسيرا واذا شكت شوكته يتألم منها كثيرا فكانت نسبة المضرة التى تحصل لهم فى أثناء اللذات كنسبة شم الورد وما يحصل منه من الشكات وأما الفقراء فبخلاف ذلك وفى بعدهما هنالك اذ نالهم سرور وسط شرور كان كالورده بين الشوك الكثير فهم منه يتلذذون أكثر مما هم منه يتألمون لان الطيب يحلو عند وجود ضده كما ان حرارة السوم تؤلف عند برده ذلك حكمة الحكيم وتقدير العزيز العليم فى أى الحالين ترغب

وعلى أى جنب تريد ان تنقلب فالاولى حالة الامرا والاخرى حالة الفقرا وهاتان الحالتان لا يرضاهما قط من مال بالطبع الى المروّة والعيش الوسط

فقال لى

افدنى بلغت انا ما معنى المروّة هنا

فقلت له

المروّة هى ان يكد المرء نفسه لفعل الخير وان يقصد بذلك وجه الله لا غير وانت كاد لنفسك فى يومك وأمسك وباذل غاية جهدك فى الطعام أهلك من كدك فلست تحتاج لمعرفة المروه لانك معدن الكرم والفتوه

فقال لى

ما أكثر مروة ورد جنه فانه انتطلب الغنى حبا فى فعل الخيرات وشوقا لبذل المبرات فسنورد لها ان شاء الله ساله ونرجع برويته اغانه

ثم ما زالت فكرته تهتف به ورد نها واعينه تتراءى على روضاتها حتى زال عنه ما به من الحيره وتفشت منه سحائب الغيره وكانت ورد جنه لم تكتب له كتابا ولم تردله جوابا لانها كانت مشرفة على القدوم مستبشرة بان الفراق لا يدوم وكان لا يلزم طويل زمن لوصولها اذ اساعدها الهوا وجاء على وفق ما تهوى

فكان

فكان قبول بحسب سير السفن ويقول ان سفن التجارة
الصغيرة اذا شرعت في السير تقطع أربعة آلاف فرسخ في أقل
من سنة شهور وأما سفينتها فتقطعها في شهرين أو ثلاثة
واسبوعين لانها في غاية الخفة والصلابة وملاحيها في أعلا
درجة من النجابة ثم أخذ يحدث فيما يلزم للاقامة بها وما يلزم
ان يبني من البيوت لها وصار يسلي نفسه بوصالها وبنالذة
مقدما بما سيراه عند زواجه بها وكلما خطر بباله انها تصير
امرأته ارتعدت فرائصه واضطربت وذنت ساعته واقتربت
وقال لي يا أبتي لابد ان نصنع معك ما أنت أهله من الاحسان
فان وردجنه فصارت من أغنياء هذا الزمان فلابد ان
نشتري لك كثيرا من العبيد فتطوف لك أرض هذه البر بدر تقضي
العيش مضافي انشراح ولا تتفكر الا في تجديد الافراح ثم يأخذه
الطرب من ذلك فيذهب الى السندبور ويخبرها بما قام به من
السرور وما مضى الا زمن يسير حتى تغير حاله وانقلبت أفكاره
وآماله وذلك لان تراكم الافراح يعقب الحزن والمرء لا زال
يتقلب بتقلب الزمن ولقد سمعته يقول ان وردجنة قطعت كثيبها
مني وعزمت على عدم القرب مني لانها لو كانت سافرت من
الجزائر لكانت أرسلت لنا البشائر ان الذي قيل عنها لابد
فتجري وان خالفها فتزوجها بأحد الامراء ولا شك ان حب

الغنى أصواتها وعنى أعمالها وما الكتب التى تمدح
البنات الا من بعض الخرافات لانها لو كان عندها اثر المروءة
لما تركتنى وتركت أمها أما علمت انى اسف عليها مشغول بها
حتى تشتغل عنى بالملذات وتلهو باتباع المسرات لقد سئمت
والله نفسى الاشغال وكرهت النساء والرجال اللهم أثرا لحرب
فى الهند فاذهب اليه والقى بنفسى عليه لاقع بينهم جريحا أو
أموت فاستريحا فقلت له ان الشجاعة المؤدية للموت هذه همة
وقتيه حركها فينا فقر آ الرجال الرديه على ان فينا شجاعة أعظم
من تلك وأحزم وبها نتحمل من هذه المعيشة ما هو أهم وهى
الصبر مفتاح الفرج دكى العرف والارج لا يتوقف على نصيحة
ناصح ولا يؤخذ من قول ماتن أو شارح

شعر

الصبر مثل اسمه مر مذاقته ٭
لكن عواقبه أحلى من العسل

ومن لم يصبر على المصيبه ويجلد على فراق حبيب أو حبيبه
فذلك فاقد للاخوه وعادم الانسانية والمروه

فصاح مناوها وأشار منوها

صدقت فانى لامرؤة عندى ولو بذلت فى تحصيلها جهدى فانى
عدمت الصبر بين الناس وأوقعت نفسى فى حالة اليأس

فقلت له

اعلم يا ولدى ان الصبر اسم انتشر لا وجود له فى البشر ولا يطيقه الا الانبيا والاولياء واما اذا دهمتنا المصائب وكرت علينا النوائب وذهل العقل منا وولت أفضل المآثر منا لا نرى غير الآداب والحكم نزيل بها الهم والغم وهى منه من الله بها على العباد ونشرها فى كل واد فهى كالشمس تضئ وتدفى وتزيل الهم وتنفى وبها تقرب لنا الاشياء وتنتظم أحوال الدنيا نستعين بها النفوس على الحسنات وتهزم جيوش السيئات وتحرض على اتباع الفضيلة وتضرب الامثال لاجتناب الرذيلة ولقد كانت تلك الاداب والحكم من السماء فى اعلى الآفاق فاراد الله نزولها على الارض لتهذيب الاخلاق فنزلت وصارت تسلية فى الخطوب وتفريجا للكروب وان مشاهير الرجال الادبا وأهل هذا الفضل النجبا كان ظهورهم فى أعصار مكربه واخلاق غير مؤدبه فابدعوا فى المنثور والمنظوم وفرجوا هم كل مهموم وكم أكثر منك هما سلوه وأعظم كربا فرجوا عنه وهنوه فاقرأ يا ولدى هذه الكتب الطيبه فان الحكما الذين ألفوها كانوا أهل تجربه سبقونا فى طريق النوائب ومذوا يديهم بالكتب البنا ونحن فى أعز المصائب فيا قوم نتسلى وبفضائلهم نتعلى

شعر

ومن لم يجد في الناس خلا موافقا ● يعد له في أيامه بكتاب

فقال قبول أراه لو ان ورد جنة معي لما كنت بقاري كما انها لم تكن نفرا لو كانت بجواري فانها حين كانت تنظر الى وتتردد بمجيئها على كان من المحال على ان اغتم او انقبض من شئ او اهتم فقلت له ان حب المرأة للرجل سعادة أبدية وعيشة راضية مرضية فان لها مداعبة لطيفة ومواتية ظريفة تزيل ما بالرجل من الحزن وتعينه على صروف الزمن وكأن وجهها مغناطيس الانس ونفحة من نفحات القدس تورث الرجل سرورا وتزيل عنه عبوسا وشرورا فابشر يا ولدي بقدوم ورد جنة من قريب ولا بد لك فيها من نصيب وانها ستعود سالمة غانمة بالغة رشدها منعامة وتعجب منك على اهمالك في امر ابستان وتعاتبك على ما تراه فيه من النقصان لانها على طول غربتها وتضررها من عذاب خالتها وبعدها عنك وعن امها لا يزال حب ابستان نصب عينها

قال فصدقت في قبول تصور رجوع ورد جنة فازداد قوة وفطنة ورجع الى عمله في الفلاحة والبس البستان ثوب ملاحة وصار يخترع فيه من فنونه وينظمه بقوة عشقه وشجونه

فلما كانت صبيحة الرابع والعشرين من شهر تشرين رأى قبول ببرقاعلى حصن المدينه وكان هذا دليلا على قدوم سفينه فمضى الى المدينة ليقف على الاثر ويسأل هل ورد من ورد جنة كتاب أو خبر وانتظر رجوع رئيس الليمان بالافاده لانه كان قد خرج للسفينة على حسب العاده ولما ان رجع الى حاكم البلد ودخل عليه دنا منه ووقف بين يديه وأخبره بان هذه المركب تسمى بالغراب قد أقبلت من الجزائر مع كثير من الركاب وحمولتها سبعماية طنو لاتته تحت رياسة القبودان شعاته وانها بعيدة عن الارض بقدر أربعة فراسخ فى العرض وانها لاتدخل الميناالا فى الغد بعد الزوال اذا كان الهواء فى غاية الاعتدال ومع ذلك فلم يكن الهواء مساعدا ولا الجو طيبا أبدا ثم أعطاه ما ورد من الاوراق برمتها فكان فيهم خطاب للست بدور من ابنتها فاختطفه قبول لوقته وطار به الى بيته ولما نظر أهله ينتظرونه على فخ الوداع رفع الخطاب فى الهوا كالشراع وأشار به على البعد وهو ميكم لا يقدر من فرحه ان يتكلم

قال فحضرت الجيران عند الست بدور ليسمعوا هذا المسطور فكان فيه ان خالتها جرعتها أنواع العذاب ونغصت عليها الطعام والشراب وأرادت ان تزوجها بالرغم عنها وأحرمتها

من ارثها وتبرأت منها وأرسلتها فى فصل الشتاء لاهلها
وماسألت عما عساه ان يحصل من البحر لها وانها كلما طلبت
منها شيأ لامها عيست وادعت انها أفلست وثروتها وسببها
والى الجنون نسبتها

ثم ختمت وردجنة كتابها بذكر ما قاسته من الشوق وما نابها
وانها حضرت لبلدها ومسقط رأسها وهى على ظهر البحر
رهينه تنتظر على البعد الى المدينه ولولا ان قيود ان المركب
منعتها من النزول حين جاء رئيس اللبمان على صندله محمول
لكانت نزلت فيه لقبول ولكنه احتج لها بأن البحر كان عاليا
وان موجه كان متواليا

قال فما تمت قراءة هذا الخطاب حتى ابتسم كل من سمع وطاب
وهللوا وصفقوا ومن رؤية وردجنة أشفقوا واتفقوا فى الغد
على مقابلتها وهنوا أنفسهم بسلامتها فقالت الست بدور
لقبول أخبرجارتنا بقدوم وردجنة هنا فاوقد مرجان شعلة
من الخشب وأتى هو وقبول عندى وهما فى غاية من الطرب
وكان ذلك بعد العشاء بساعه وقد هجعت الجماعه وكنت
طفيت قنديلى وعصبت رأسى بمنديلى وتهيئت للنوم شاكرا
الله على سلامتى فى هذا اليوم وما أشعر الا ونور ظهر من بعض
طيقان المنزل ثم سمعت صوت قبول وهو مقبل ولما نادانى

قت اليه ولبست ثيابي وخرجت عليه فعانقني وهو في غاية
الفرح وصدره قد انشرح وقال لي قم بنا فان ورد جنة جاءت
هنا وانها اذا ساعدتها الرياح دخلت مركبها الميناء على الصباح
فقصدنا الميناء من طريق الغابه ونحن في غاية القوة والصلابه
وبينا نحن في سيرنا واذا برجل يمشي من خلفنا فوقفنا له حتى
دنا فسألناه عن حقيقة أمره ولاي شئ يسرع في سيره فقال
وهو في غاية الحيره انه من عبيد هذه الجزيره وانه جاء يخبر
الحاكم بمركب أتت تحت جزيرة العنبر تضرب المدافع طلبا
للاعانة على خطر البحر فانه كبر عليها وأتعبها ويخشى منه ان
يركبها ثم استمر العبد في طريقه وهو من شدة سيره يكاد ان
يشرق بريقه

فقلت حينئذ لقبول سر بنا الارض الذهب فان السير بالليل
يستعذب وهي كائنة جهة الشمال وليس بيننا وبينها الا بعض
أميال فسرنا وكانت ليلة شديدة الحر وكان في الجو ثلاث
هالات حول القمر وكان السحاب كثيفا والبرق عنيفا
ظلمات بعضها فوق بعض منتشرة حول الجزيرة بالطول
والعرض ثم تخيلنا صوت الرعد وحققنا انها أصوات مدافع
من بعد فدخلني الرعب من صوت المدافع وانشعر جسدي
من نازلة ليس لها من دون الله دافع وثبت عندي انها علامة

الغرق وان المركب معرضة للغرق ثم سكت صوت المدافع
وانقطع فكان سكوتها أشد خوفا وفزع
وتقدمنا في السير ولم ينطق أحدنا بكلمة او يقول لصاحبه
من الخوف الذي كتمه فلما وصلنا نصف الليل الى ساحل
أرض الذهب رأينا البحر هناك قد اضطرب وتدحرجت
أمواجه على الصخرات وقد ذفت بزبدها من جميع الجهات
ولكثرة لمعان نسفورها وما كان ينطاير من نورها رأينا
قلايك الصيادين على البر مقلوبة منها المعدولة ومنها
المقلوبة ورأينا على البعد من مدخل الغابة شعلة من النيران
حولها كثير من السكان فجلسنا هناك للاستراحة الى ان
ينشر الليل صباحه ويبدي الديك صياحه وبينما نحن قاعدون
والكلام من حضرة سامعون واذا برجل منهم يقول وهو ينظر
لي والقبول انه رأى بعد الظهر مركبا على بعد عشرة أميال
من الثغر حملتها قوة التيار الى الجزيرة وما أخفاها عن أعينهم
الا ظلمة الليل الغزيرة وانه سمعها بعد الغروب بساعتين
تضرب مدفعين بعد مدفعين فعلم انها تطلب المعونة وتريد
المساعدة الا ان البحر كان هائجا فما أمكن ان يرسلوا
لاعانتها حوايجا وترآى لهم انهم لسرعتها أوقدوا ورفعوا أعلام
الاستغاثة وشيدوا وانها ربما دخلت بين البر وبين جزيرة

العنبر ظنا بان هذه الجزيرة تأوى اليها السفن المستجيره وانه
ان صح ذلك فهى فى كرب عظيم وخطب جسيم وقال رجل آخر
انه كثيرا ما مر فى الخليج الكائن بين جزيرة العنبر والساحل
وانه جس ماءه فوجده للاستقبالى قابل وان المركب فيه تكون
فى أمن أمين وحصن حصين وانه لو ملك ملىء مركب ذهبا
لامن عليه فى هذا المكان ونام وقلبه فى غاية الاطمئنان
فقال ثالث انه يستحيل دخول المركب فى هذه الجزيره فان
ماءها لا يقبل الا السفن الصغيره وذكر انه رآها خارجا عن جزيرة
العنبر بحيث لو نسم الهواء لامكنها ان تخرج فى البحر لو تأتى الى
البر ثم ضطربت بعد ذلك أقوالهم وكثر قيلهم وقالهم كما هى
عادة العامه فى كل أمه وكنا أنا وقبول سامعين وبقينا
معهم حتى نظرنا النهار بالعين اعنى الشدة العتمه والضباب
وكثرة ظلمة السحاب كان لا يمكننا ان نرى على البحر شيأ ابدا أو ننظر
على البعد أحدا غير شئ على البعد ظهر قيل عنه انه جزيرة العنبر
وان بينها وبين البر ربع فرسخ بالاكثر ولشدة انطباق الجو
فى هذا النهار وما اعتراه من الاعتكار كان لا يرى الا رؤس
الاحجار وبعض قمات الجبال الكبار مما يتشقق عليها
السحاب ويحيط بها كثيف الضباب فلما كانت الساعة
الواحدة من النهار سمعنا دويا فى الاشعه

أصوات طرنبيتات العسكريه مع فريق من رجال الجهاديه قد أتوا مع الحاكم حاملين أسلحتهم آخذين أهبتهم فأمران يضربوا بنادقهم دفعة واحده والمضربوها رأوا نارا فى البحر موقده وخرجت بعدها ضربات مدافع متعدده فعلمنا ان المركب بالقرب منا غير بعيدة عنا ثم نظرنا من خلال الضباب مركبا يرفعه البحر الى السحاب ولقربها سمعنا الملاحين مهللين و بذكر الله مكبرين باسطين اليه أكف الطلب متوسلين اليه بسيد العجم والعرب ان يزيل عنهم الكرب و يبعد عنهم الموت الذى اقترب ولما رآى من فى المركب انه يمكننا تخليصهم من المضايق صاروا يضربون المدافع فى كل ثلاث دقايق فبادر الحاكم باتفاد نيران مشرقه على جهات متفرقه ليقوى الركاب و يشجعهم وفى حصول النجاة يطمعهم ثم طلب من الاهالى أخشابا وما كولا وأحمالا و براميل فلموها من بعضهم لما وأعطوه منها شيأ جما فأمرهم أن يرموها فى البحر على عجل فألقوها وهم فى غاية الوجل وعند ذلك أقبل على الحاكم رجل من خبير بالعواصف متقن وقال له انا لم نزل نسمع فى الليل دويا فى الفابات وتحريكا فى ورق الشجر على عدد الاوقات ودام ذلك الى الصباح مع عدم وجود الرياح وان الطيور المائية قد هربت الى البر وهذا دليل على

الهول الاكبر وعلامة على قدوم عاصفة ليس لها من دون الله كاشفة فقال الحاكم يا أولادى ها نحن قد استحضرنا لها وها هى السفينة تنتظر نزولها وحقيقة كان فى الجو مايدل على ذلك لان وسط السحاب كان أسود حالك وكانت أطرافه متلونة بلون النحاس وأفواهه تكاد تتفجر من شدة الاحتباس وكان كثير من الطير يفر الى البر ليأوى من الخطر الى معاكف الشجر

ولما كانت الساعة الثانية من النهار سمعنا من جهة البحر صيحة عظيمة وقعقعة جسيمة كانما نفخ فى الصور أو تزعزعت الجبال والصخور فصاحت الناس قائلة ها هى العاصفة مقبلة ثم هبت الزعازع فمزقت ما كان فى الجو من الضباب وظهرت السفينة ومن عليها من الركاب وكانوا أنزلوا شراعاتها وربطوا لنساتها وربطوها من الامام بأربعة زناجير وعمنة كبيرة من جهة الغدير وكانت راسية بين جزيرة العنبر وبين رباط الرسيف المحيط بالبر ونفدت من محل لم تسبقها اليه سفينة فبقيت فيه أسيرة رهينة تلقى الموج بصدرها فيرفعها حتى تظهر أخشاب قعرها وتغمس مؤخرها فى الماء حتى يغيب عن النظر ولم يبق له أثر وظل الريح والبحر يخفضانها ويرفعانها وعلى البر والحجر يدفعانها وهى لا تستطيع الى البحر رجوعا ولا الى البر

طلوعا لانه كان بينها و بينه مهاو عميقه مفصولة عن بعضها باشعاب دقيقه وكانت تأتى الموجة من البحر تخور فى سيرها وتقم البر بنشرها فتعلوا كثر من خمسين قدما على الارض وتغمر الرمل فى طوله والعرض واذا رجعت تكشف الارض كشفا وتنضف الاحجار نضفا وهى تفور وتمور وتعلو على الجبلان والثغور حتى ان الخليج الذى بين هذه الجزيرة وجزيرة العنبر صار لجة عظيمة من لجج البحر ثم يعلو زبدها على الاحجار فيبلغ ارتفاعه أكثر من ستة أمتار وكانت الرياح تختطف منها ما يمكن أختطافه وتقطف من الزبد ما يروج اقتطافه وتنشره أكثر من نصف ميل على البر فكان يظن انها ثلوج خارجة من البحر وكان يظهر من علامة الجو أن العاصفة تمكث زمنا طويلا لانها كانت تزداد قليلا قليلا حتى كاد البحر ان يختلط بالسماء وان يغمر الارض كلها بالماء وكانت الريح تخطف بعض السحاب فى الحال و يبقى البعض ثابتا كالجبال ومازالت السماء فى حجاب والارض والبحر فى غاية الانقلاب

أما السفينة فمن شدة ما قاسته من الويل مدة النهار ومدة الليل تقطعت زناجيرها ولم ترمن بحيرها وقلعت مراسيها ولم تجد من يواسيها فقذفت بها الامواج على الشعب فتكسرت

وضجت

وضجت عليها الناس وتحيرت فهم قبول يرمى نفسه فى البحر
فأمسكته من ذراعه وصممت على امتناعه وقلت له يا ولدى
اياك اياك ان تلقى بنفسك الى الهلاك فقال بلى ولكن لانجيها
أو أموت حبا فيها ولما رأينا طاش وذهل والتزول فى البحر
تأهل وبطنا بجبل طويل وامكنا طرفه على بعد ميل
فأقبل على السفينة بجاره يعوم تارة ويمشى تاره وكان يمكنه
ان يقربها وان يتسلق عليها ويركبها لان البحر عند نزوله كان
يتركها واقفه على الارض الناشفه فيمكن للرجل ان يمشى
حولها على أقدامه وان يتمكن من مرامه لكن عند عودة
الامواج وتعاليها كالابراج كانت تصدم مقدم السفينه
فترفعه الى القربه ثم ترمى بقبول رمية عنيفه فينجرحها
كالجيفه ويأتى والدم يسيل من يديه ورجليه وتظهر علامة
الموت عليه فيصبر حتى يفيق لنفسه ويتمكن من نفسه
ويرجع ثانيا من سوء بخته الى خلاص أخته لكن السفينة من
شدة ضرب البحر فيها فتحها وعلى الاحجار طرحها فبئس من
فيها من البحريه وألقوا بأنفسهم فى البحر سويه وركب البعض
على الصوارى واستعان البعض بالالواح والمدارى وهموا
من الهلاك هاربين والى النجاة طالبين ثم رأينا بعد ذلك
شيأ تقشعر له الجلود ويذوب منه الحجر الجامود وذلك ان

ظهرت فى مؤخر السفينة بنت مليحة الثياب فتنبه الشباب
مادة يديها القبول وهو يسعى فى نجاتها وكانت هى وردجنة
بذاتها وكانت عرفت محبها الجرى وهو اليها يجرى فلما
رأينا تلك البنت اللطيفه وهى معرضة للاخطار المخيفة
ملئنا قلبها رعبا وازددنا يأسا وكربا وأما هى فلم يعرها فزع
وما اظهرت من هذا الخطب جزع بل صارت تشير لنا بالوداع
الذى ليس بعده اجتماع وهى مع ذلك مطمئنه ضاحكة
مستبشرة ناجنه ثم ظهر على ظهر السفينة رجل مربان ودنا
من وردجنة وهو حيران وجثا على ركبتيه أمامها وترجاها
وهو راكع قدامها وأراد ان ينزع ما عليها من اللباس
لينجيها من الغرق والباس فدفعته عنها مع الانفه وصرفت
وجهها غضبة بغاية العفه فصاحت عليه الناس من كل مكان
أن نجها نجها يا انسان وأقبل فى الحال على المركب جبل من الماء
مرتفع برأسه الى عنان السماء فلما نظره البحرى مزيدا ونظر
جداره أسودا فرهاربا والى النجاة طالبا وبقيت وردجنة
وحدها المسكينه ونظرت فرق السفينه واستعدت للقاء
ربها وهى واضعة يدها على قلبها كأنها ملك خرج من
الماه وأراد ان يصعد الى السماه

شعر

فيالك يوما كثيرا الخطوب
• فظيع الشروق شنيع الغروب
و يالك يا دهر فينا منى
• نراك من البغي يوما تتوب

قال فلم تبق تلك الموجة السفينة أثرا ولم تترك لورد جنة خبرا بل طفا ماؤها على البر زاحفا وطرد كل من كان هناك واقفا ولقد نجا البحري الذي كان يقود ورد جنه وفاز من الله بهذه المنه فخر بعد خروجه ساجدا ورفع يديه متشهدا وقال يا رب الارباب ويا معتق الرقاب لا أحصي ثناء عليك بما نجيتني واعتقت روحي وأحييتني وكنت أرجح حياة هذه الشابة على حياتي وأود نجاتها ولو بوفاتي

وأما انا ومرجان فاشتغلنا في اخراج فضول اذ فرغ من ورد جنة للمأمول وكان الاشتغال بأمره ألزم لانه كان أشرف وهو في العدم وسال الدم من فمه ومن أذنيه حتى ان الحاكم أعطاه لطبيب وأوصاه عليه وشرعنا بعد ذلك نبحث في كل الحواة عن جثة ست البنات فوجدنا الريح حادت من مهبها فخفنا ان لا نعثر بها وان نحرم جثتها من الدفن ولا نواري في التراب والكفن وغادرنا هذا المكان أسفين على تلك الصبية أكثر من أسفنا على من هلك في هذه البلية حتى لقد كدنا نسخط على

القدر كما يحصل ذلك لبعض البشر عند الكدر واما ما كان من
أمر قبول فانهم حملوه الى بيت قريب على انهم ينقلونه بعد ان
يطيب ثم رجعت مع مرجان لنسلي الست بدور في مصيبتها
ونعزيها على فقد ابنتها ولما حصلنا فوهة الوادي من نهر التوير
قابلنا كثيرا من العبيد عند الجون الكبير فأخبرونا ان البحر
قذف هناك قطعا من السفينه فنزلنا هناك فرأينا جثة
البنت المسكينه وكان الرمل قد غطى نصفها ولم يغير الموت
وصفها وكانت عيناها مفتوحتين وشفتاها مبتسمتين انما
تبدل ورد خديها باصفرار واعترى جبهتها بعض اقشعرار وكانت
بالحالة التي رأيناها في السفينة عليها واضعة على قلبها احدى يديها
ضامة ثيابها باليد اليسرى حافظة صورة قبول باليد الاخرى
لانها كانت عاهدته ان لا تفرط فيها ما دامت حيه ثم ماتت على
هذا العهد والذمه فنزعتها من يدها مع غاية الصعوبه واندهشت
من تلك الاعجوبه وأخذني من الدمع الاختناق وبكيت مع
مزيد الاحتراق وأما مرجان فشق جيبه ولطم خده وصار
يصرخ في الطريق وحده ثم حملناها الى بيت من بيوت
الصيادين عند بعض نساء من المساكين وقلنا لهن ان
يغسلنها من الرمال وننزلها على بيت أمها في الحال فلما ان
دخلنا وجدنا الستين جالستين وعلى الركب جاثيتين يدعوان

الله

الله بوفاروسكينه ان ينقذ هذه السفينه فوقع نظر الست
بدور على وأنا باكى العين ذاهل العقل من صرعة البين
فطنت لما وقع وذاب قلبها وانقطع وصاحت أين ابنى أين
عزيزتى أين قرة عينى وحبيبتى ثم خنقها البكاء فحقن دموعها
وأباح زفرتها وولوعها وناحت اقعوان على ابنها وهلت
وبكت وولولت حتى وقعت مغشيا عليها فصرنا كلنا بين
يديها ولما افاقت أعلمناها بجياة قبول وان الحاكم بعلاجه
مشغول فردت روحها اليها وضمت الست بدور بين يديها
وأخذت نسلها وهى عنها مشغوله منصورة بالم مقتوله وقضت
ليلها فى تلك الحالة المهوله حتى ثبت لدينا ان لا شئ من الملمات
يعدل ملمة الامهات وكانت كلما أفاقت وأعتدل مزاجها
وراقت نظرت الى السماء بعين انكسار وتفجرت من
دموعها العيون والانهار ولم يجد تعبنا شيأ فيها حين كنا
نسليها كأننا لم نسبق لنا صحبه ولم تعقد بيننا محبه بل لازالت
تئن أنين العليل وتشكو شكوى الذليل حتى طلع النهار
ونزل الليل وانهار

ولما كان فى الغد أحضروا قبولا وجاءوا به محمولا وكانت ردت
روحه اليه الا الكلام فكان لا يقدر عليه وكنت أظن ان مجيئه
يزيد الامهات حسره ويقضى عليهن بالمره لكنه فرج عنهما

وصرف بعض ما كان قائما بهما لانه ما نزل على الارض الا ووقعنا عليه ضما وأوسعناه ضاقا ولما رأيا دموعهما وكان أجدها الهم وخفقها الكرب والغم فبكى قبول معهما وتوجع بينهما وبعد ان خف ما بهما من ألم الصدمة وتصرف بعض تأثير الفجعة نزل عليهما الخشوع والسكون وظهرت في وجوههما علامة الحزن

ثم ما أشعر بعد ذلك الا وخبر من الحاكم جاءني ورجل بتعهيز ورد جثة أسرتي وقال لي انها حملت وان أهالي الجزيرة لجنازتها كلت وانهم ذاهبون بها الى مسجد الابوين فخرجت معه وانا رثيث المسوى ونزلت على مينا لؤى فاذا عالم كثير وجم من السكان غفير قد حضروا الجنازة من كل فج عميق كانهم فقدوا أكبر حبيب وأعز صديق وكانت كل السفن منكسة السيرانات مدلية البيارق والاشارات تضرب المدافع زمنا بعد زمن علامة على الحزن وأحاطت بالرجال العساكر كالزفاف حاملين بنادقهم بالخلاف ضاربين طرنبيطاتهم على طريقة المياتم لا على وجه المواكب والمواسم

شعر

وعلى وجوههم الكريمة غبرة
• دلت على طول المآسف والحزن

وهم رجال الحرب لم يجزنهم •

• وقع السيوف ولا الاسنة فى البدن

قال وكانت تمانية من أبكار الاكابر تحمل نعشها وتردع للميت عرشها عليهن ثياب بيض يعاليل وفى أيديهن شئ من سعف النخيل وكان نعشها كقبة من الانوار مكللة بالازهار امامه فرقة من أبناء الكتاب يقرؤن الكتاب وقد حضر لشهد امراء الناحيه ثم بعد ذلك الحاكم والحاشيه

هذا ما رسم به الديوان لتشييع وردجنه وتوصيلها الى القبر الذى هو أول درجات الجنه وبعدان وصلوا بها الى سفح الجبل والناس تحمل نعشها بالقبل مروا على المنازل التى طالما أنسها فى حياتها وملأتها وحشة بعد مماتها ثم انفض عقد الموكب ووضع النعش على الارض كالكوكب فصرت لا تسمع الا صويتا وتكبيرا وتهليلا ونساء باتين من كل مكان وبنات حسان وغير حسان يترامين على النعش باطراف الملبوسات ويتبركن به تبركهن بالبرازخ والمقامات ويتضرعن الى الله ببركتها ويتقربن اليه بواسطتها فتقول المرأة رب ارزقنى بنتا فى وصفها ويتمنى الصبى عروسا فى ظرفها ولطفها ويرجو الفقير حبيبا فى صدقها وأمانتها وتقول العبيد اللهم اجعل موالينا فى رأفتها وحنانتها

ولما وصلت بجلالة قدرها الى قبرها أقبل كثير من سكان مداغشقر وعبيده وزنبيق والكفر ووضعوا حولها فواكهها ونثروا نفيس الاقمشة على الاشجار المحيطة بها جريا على عاداتهم واتباعا لاصطلاحاتهم وجاء كثير من الهندوس واحتل ملابار بأقفاص من مليح الاطيار فوضعوها بقربها واطلقوا ما بها من الطير فى حبها شعر

وهكذا الطيب ان ذاق الالم
نبكى على فراقه كل الامم
جزاؤه على جميل صبره
ان تجمع الاكوان عند قبره

وقد اقتضى الحال ان يحيطوها بالحفر لمنع كثير من البنات ان تنزل معها فى القبر فكم يكبن فقدها وقلن مع الخرقة لها شعر

تعالى بالله يا حبيبه
نفديك من هذه المصيبه
فكيف هذا البعاد عنا
وانت ما بيننا قريبه
قومى من النعش كلمينا
فانت ان تنطقى لبيبه

نحبك قد قضى ولكن •
• لم يقض منافني نحبه
يا ورد جنا تماجيها •
• مونك والله ذا العجبه
أمس قرانا كتاب بشر
أملته ألفاظك الغريبه
وجاء يجري قبول فينا
يشمل من شوقه طبيبه
وفض ختم الكتاب ليلا
فلم نجد في الكتاب ريبه
واستبشر الكل ثم بقنا
نذكر حسن الفارطيبه
وبات في الانس والهدا
يقسم كل منا نصيبه
واليوم قد جانا غراب
يقطر منقاره نعيبه
فالدهر في نفسه معاب
وليس يحتاج ان نعيبه

وكان دفنها في قرب مسجد الزعفران تحت ظل الخيزران في

مكان كانت تحبه في حال حياتها وتريد ان تستريح فيه وهي عائدة من زياراتها

ولما رجع الحاكم من المشهد أتى هنا ووراءه الحشد وأخذ يعزي الست بدور في مصابها ويعدها بالدراهم التي أمكنه يجودبها وسخط كل السخط على خالتها التي هي السبب في مصيبتها ثم دنا من قبول وشرع يسليه ببعض الاقوال وقال له اني كنت قصدت بسفرها ان يعتدل الحال وبذلك يعلم الله ونشهد ملائكته وانبياءه فسافر ياولدي للجزائر فاني موجد لك خدمه وعلى ان أقوم بشأن أمك في الامور المهمه ومديده اليه ليصافحه ويستعطفه ويسامحه فقذف بها قبول من وراه وصرف نظره عنه كيلا يراه

وأما أنا بعد ملت مقامي عندهم وأقمت أياما بينهم لاسليهم وأسلى قبول بقدر ما يمكنني أن أقول فلما مضى لذلك ثلاثة أسابيع صار قبول على المشي يستطيع لكنه كلما زادت قوته زادت همومه وشقوته حتى اصبح عديم الاحساس سليب القرار والاستئناس اذا سئل لا يرد جوابا وان تكلم لا يحسن خطابا وكانت الست بدور كلما رأته تقول ياولدي ما رأيتك الا وتصورت وردخنة فينشق كبدي فيقشعر عند ذكر اسمها وينفر كما تنفر المها ولا يصغي لقول أمه وهي تناديه

وتدعوه لما كان فيه ل و يفر من كل مكان ولا يأوى الا الى البستان فيظل متفكرا فى ورد جنة جالسا تحت شجرتها شاخصا الى فسقيتها وقد أوصى الحكيم الذى اهتم بمعالجته ان لا يتعرض له أحد فى ارادته وقال لا ينقذه من داء المليليا خوليا الذى اعتراه الا ان يترك على هواه

فلقد اتبعت نصيحة الحكيم وعرفت ان ذوقه سليم فلما أحس قبول برجوع قوته وكمال عافيته فر من البيت فرار الآبق وكنت أنظره على البعد نظر الوامق فقلت لمرجان ان يحضر شيأ من المأكول وان يتبعنى وقبول فرأيته نزل من الجبل واشتد جسمه وعليه السرور دخل ثم انحدر الى طريق المسجد جهة الخيزران والتفت وراءه فلم ير انسان فوقف غير بعيد من قطعة أرض ترابها جديد وتوضأ من العين وصلى هناك ركعتين ثم دعا ربه وأطال الدعا وجثا على ركبتيه خشوعا وتضرعا فاطمئن قلبى لما رأيته على تلك الحاله وقلت ان التطوع من العقل لا محاله وانه رد ادراكه اليه منذ ظهرت علامات الصلاح عليه فخلعنا ناوسرجار نعالنا وتوضينا ثم نوينا هناك وصلينا وبعد ذلك أخذ يسير الى شمال الجزيره وهو فى هدء من الحيره ولم يلتفت مع ذلك الينا ولا الفى بصره علينا وكنت اعلم انه لا يدرى أين دفنت ورد جنة ونوارت

وهل طلعت من البحر أو غارت فسألته لاى شئ صليت تحت
عيدان الخيزران فقال لانا كنا نجتمع كثيرا فى هذا المكان
ثم استمر فى طريقه مع القوة والصلابه الى ان وصل الى باب
الغابه وهنالك جن علينا الليل وعدمنا القوى والحيل
فاكلت أمامه ليأكل مثلى فأكل ونمت تحت شجرة فكذلك
فعل ولما أصبح اليوم ظننت انه يرجع لكنه بقى جهة
الخيزران متطلع ثم مشى قليلا كأنه يريد الرجوع لكنه توغل
فى الغابه مع الهلوع فعرفت قصده ولم أقدر ان أزحزحه عنه
ولا أبعده منه حتى وصل وقت الظهر الى أرض الذهب فقصد
البحر وذهب منحرفا الى المكان الذى غرقت فيه السفينه من
تلك المينه فرأى البحر أسكن من مرآة فصاح آه آه واعزيزتاه
واوردجنتاه ثم وقع مغشيا عليه فتقدمنا اليه وحملناه
الى الغابه الى ان أفاق ووجد صوابه ولما أفاق أراد الرجوع
الى شاطئ البحر فمنعناه وتداخلنا عليه ورجوناه فرجع عن
مشروعه الاول وبدل ما كان عليه وتحول ومازال يدور مع
الهيام مدة ثمانية أيام حتى طاف بالمحلات التى كان فيها
مع ربيبته ومر بالمخادع التى رأى فيها وجه حبيبته وما جاس
لا من فرط تعبه وشدة ما اعتراه من ظمائه وسغبه وكلما نظر
شيأ من تلك المحال التى كانت تذكره بما جرى معه فيها من

الاحوال كالعنب والاكل سوبه وكالنهير الاسود الذى مر عليه فى البريه والقطع التى كانت نرقص فيها معه فى أيام صفاه والبقع التى كانت تغنى فيها على قيد الحياه أسبل دموعه وأضرم ولوعه وصاح آه آه واوردجنتاه وامرضناه ومازال على هذه الحالة الموحشه والاضطرابات المدهشه حتى اغورت عيناه وتذبلت وجنتاه وأخذت صحته فى الاضمحلال وعقار ونقه وزال فلما رأيت ان الافكار فيها اتلاف وانه يلزمه البعد عنها والاعتكاف بدالى انه أنقله فى قطعة من الجزيرة تكون له مسليه مبعدة للهم منسيه ونزلت به أرضا فى الجزيرة لم يكن يأتيها وطول عمره ماخطر فيها وكانت بها حركة الزراعة جسيمه وثروة التجارة عظيمه فمن تجارين ينشرون أخشابا وفلاحين يحملون حصائد وأعشابا وعربات ذاهبه وأخرى على الطريق آيبه ومراع للانعام ومراح للاغنام وسكان فى الحلل منتشره هنا خمسة وهناك عشره ولعلو الارض كانت الزراعة ممكنه للامم المتمدنه فكم من حصائد فى الحلوات وأشجار فى الغابات وورود يانعه وأزهار طالعه ولكثرة الزرع طرى الهوى وطابت للناس البيض هناك المأوى فظننت ان قبول اذا أقام بهذه المحلات ينسى ذكر مافات اذا لبصر من هناك لاينظر والميناوالاماكن

التي حولها لا تظهر وان الجبال الممتدة من طرف منها لوى لا يظهر منها من جهة الصحراء شيء الا بعض رؤس شاهقة وصخرات متفرقة وكان مجيبي يقول في هذه المواقع ومواتني اياه في تلك المنازل والمطالع قصدا بان أشغلت أفكاره وأزيل تولعه وتذكاره وان يترك ما في باله ويبعد ذكر ورد جنة عن بابا له لكن العاشق يرى أثر معشوقه في سائر المخلوقات ولا يزال يذكره على عدد الاوقات

شعر

تراه ان غاب عني كل جارحة ٭

في كل معنى لطيف رائق بهج

في نغمة العود والغناء الرخيم اذا ٭

تألفا بين الحان من الطرج

فكان لا يفتر عن وردها ولا يرى جنة الا في وردها كسير المغناطيس اذا مس الابرة علقها وأين رآها عانقها وهي تدور معه حيث دار وتسير كيفما سار فقلت له ونحن في صحارى ولبان الى أين نتوجه الآن فالتفت جهة الشمال وقال هاهي جبال الساو والمروج التي عليها فهل لك ان ترجع بنا اليها قال فرأيت ان ما فعلته لم يجد فيه نفعا ولم يعمل لديه خفضا ولا رفعا فلم يبق لي الا ان أحكي معه في عشقه وان آتيه من باب

شوقه فاستعملت ما قدرت عليه من البرهان القاطع واتخذت له الدليل الساطع وقلت له نعم هذه هي الجبال التي كانت وردجنة تسكنها وتلك هي المحال التي كانت تسكنها وهاك الصورة التي كنت أعطيتها لها برمتها فاني وجدتها على رمتها فما نسيتك في حياتها ولا بعد مماتها فلما نظر هذه الصورة مديدة اليها وألقى بنفسه عليها وضمها الى قلبه وقبله مظهرا بعض ما اصفر من تبسمه ثم حن واشتكى واختنق بالبكى فقلت له يا ولدى استمع لما أقول ولو كان عن فضول فاني محبك وطالما كنت معينا لكما وأنا الذى فطمتك وهذبتك وعلمتك وأدبتك وعودتك المصائب ومرنتك على حمل النوائب فعلى م هذا الاكتئاب وطول الانتحاب أتبكى على نفسك أم تبكى على فقد مرسك فان كان بكاؤك على مصيبتك فهى نازلة عظيمة وملمة أليمة لانك فقدت أحسن البنات خلقا وخلقا وأجملهن فعلا ونطقا لقد كانت والله تفضلك على نفسها وترفع مقامك فوق رأسها وتؤثرك على ثروتها وما كانت ترجوه من خالتها وتعتقدانك من أكفائها بل من موالبها وأوليائها لكن ما أدراك ان ما كنت تطمع فيه من السعادة لديها ربما كان وخيم العواقب عليك وعليها فانها كانت فقيرة مجردة مخرجة من ارث خالتها مبعدة ولم يكن لها شئ

تعيش منه الا كدك وعرق جبينك وجهدك ولا يخفاك انها
تربت في الرفاهيه وامتادت على المعيشة الواهيه فلا شك انها
على حرارة طبعها وشدة حبها فيك وتولعها كانت اذا رأتك في كد
تساعدك في الاشغال وتمقت نفسها في الاعمال فان رزقت
منها بذريه فقدمت الرزيه اذ كان لا يمكنها ان تخدم أولادها
وتخدم أمك وأمها فان قلت ان لها كم كان يساعدكا وشئ
يعدكا قلت وما أدراك انه كان ينتقل الى بلده ويأتيك رجل
لئيم من بعده وربما احتاجت زوجتك الى رجائه فيستميلها
بمكره ودهائه فان مالت اليه ملتك وان مزت نفسها عنه
أذلتك فان قلت

شعر

كفاني من الدنيا حبيب وانتي ●
● لا كفله رغم النوى والنوازل
فأشكر له طورا وأشكو الذي يرى ●
● وان كلانا بالذي غير هازل

قلت صدقت لكنها ماتت وانقضت أيامها وفاتت ولم يبق لك
بعدها لا أمك وأمها ولقد كانتا عزيزتين عندها وانك
بفعلك هذا تقودهما الى القبر فاصبر فلا حيلة الا في الصبر واصرف
حيلتك في خدمتهما كما صرفت وردحا من حياتها في مساعدتهما

فان

فان أحياء المروءة هو عين السعاده وأعلا منازل الخير وزياده
وان متاع الدنيا محصور فى اللهو والغنا والتفاخر الذى عاقبته
الفنا وأنت تعلم ان خطوة لطلب الغنا واحده قد أوقعتنا فى
حضيض ما أبعده وانى وان كنت لم أرض لها بذلك فى أوائل
الامر ولم أعنها على السفر الا انه ربما كانت عاقبته اصلاحا
لشأنها وشأنها سيما وان خالتها كانت طالبتها فى أواخر سنها
وان الحاكم قد أذن فى ذلك وأطلب ومامن أحد الا رأيه
استصوب مع ان ذلك كان تهيئه لاسباب البلبه فهذه
لاشك حكمه الهيه والكائن لابد منه والمقدور لا مفر منه
وقد قيل

شعر

اذا كان عون الله للعبد مسعفا ✽
يهون له من كل شئ مراده
وان لم يكن عون من الله للفتى ✽
فاول ما يجنى عليه اجتهاده

هذا وان كان الاتفاق عدم مطاوعة أمرهم والحذر من خداعهم
ومكرهم الا ان العالم على اختلاف بضايعهم وتفرق حرفهم
وصنايعهم لابد لكل ان يفقد أعز ما عنده سواء كان
حبيبه أو قريبه أو ولده وأغلبهم بعد الفقد يقول يا ليت ما كنت

فقلت ويالبيت ماقصرت فيه وماأهملت وماعلموا قول لبيد وشعره المفيد

شعر

الا كل شئ ماخلا الله باطل ٭
٭ وكل نعيم لامحالة زائل
وكل ابن أنثى لوتطاول عمره ٭
٭ الى الغاية القصوى والموت آبل
وكل أناث سوف تطهر بينهم ٭
٭ دويهية تصفر منها الانامل

وأما أنت فلواختبرت سريرتك وقرأت سيرتك لمارأيت فيك عيبا يلام ولوجدت عندك أخلاق الشيخ على سن الغلام وكم لك على ورد جنيه حقوق بينه لاتحتاج الى برهان ولا بينه فوتها الا بخل فيك ولا تبذير ولا شح ولا تقتير ولم يكن لك فيه جنيه اذ جعله الله على يد خالتها الشقيه فتبارك من الهصورك وأنشاك وحلاك بمعرفته ووشاك فمكمه البالغه ونعمه السابغه تأبى ان تندم على نقدها أوتعترض على ماقسم الحظ لها فانه قد رعليها ذلك من يوم ولدت بل من ساعة ماتصورت فى رحم أمها ووجدت وان العيش صرح والموت له شرافه والمنون كأس والناس له رشافه يدور على

القبيح كما يدور على المليح ويفتك بالملوك والمالك ويبطش بالملوك والممالك

شعر

وما الدهر الا منجنونا باهله ٭

وما صاحب الحاجات الا معذبا

فاحمد الله على انها ماتت قبلك وقبل أمها أعني انها لم تمت مرتين ولم تكو بجمرتين فانها ان كانت ماتت بعدكما فلا شك انها كانت تبكيكما وكانت هذه لها الموتة الاولى وموتتها تكون الموتة الاخرى على ان الموت للعباد كالليل لليوم العبوس فمن نام به فقد ارتاح من اليوس وانك اذا وقفت على حقائق الاعتبار ومعايش الامراء والادعياء وجدتهم في الحقيقة لا يملكون غير صفة مغبون فان لهم على ظهورهم مصائب باطنيه وفي نظير ما عندهم من الثروة آفات صحيه وان أحبابهم أحباب أموالهم وطلابهم على قدر نوالهم فاذا انقضى عيشهم الذي صرف على منافع غيرهم وعافهم الموت من سيرهم لم يحضرهم غير قريب ملتمس أو منافق مختلس وأما وردجنة فانها عاشت سعيده وماتت شهيده وانها تمتعت بينها بتلك الخيرات الطبيعيه وماتت محافظة على السعادة الابديه لانها لما نظرت الى القوم وهم متلهفون عليها ورأتك وانت سابح بالجسارة اليها

ثبت عندها انها كانت محبة للعموم وان الشعب عليها مهموم
مغموم فاطلعها الله على برائة ساحتها وانجلاص ذمتها
فاستحقت ان يمن عليها بالجزاء الاوفى وان يحشرها مع عباده
الذين اصطفى فالهمها الصبر عند الحمام حتى انها قابلت
الموت بابتسام

واعلم يا ولدى ان الله مبتل لاحبائه معجل بالموت لاخلائه لعلمه
تعالى ان ليس يقدر على حمل ذلك سواهم وانه مثيبهم فى الاخرة
ومجزل عطاهم فمن أراد به الخير اصطفاه وعجل له بالوفاه ليكون
لغيره فى التجلد قدوه ولمن أراد ان يتأسى أحسن اسوه ثم يجعل
له فى الدنيا جزاءه بان من تفكر فيه بعد موته بكاه ثم يخلد ذكره
بين الامم الآتيه والذرارى التاليه حتى تنقرض الملوك وذكره
لم يزل وتفنى الدنيا وهو باق الى الازل

وان ورد جنته فى حيز الوجود لا العدم وانما انقلت من عالم الى عالم
واخرجت من دار الفنا والشقا الى دار النعيم والبقا فان من
خلقها من أديم قادر على ان يحيى العظام وهى رميم فسبحانه
دلت مخلوقاته على وجوده وشهدت خيراته بمعبوده فمن
انكره فقد كفر وضل فى واد أنفر وحاشا ان يترك وردجنته
وان لا يجعل أول ثوابها الجنه اجل انه خلقها وحسن خلقها
وحلقها وكان يقدر على نجاتها من الغرق وحفظها من الحرق

والشرق الا انه تعالى اختارها لنفسه فقربها من حضرة قدسه وتالوا مكنا ونحن في عالم الذر ان نقف على الخبر ونعلم كيف خلقنا وبأي وجه قدر ارزاقنا او انا من يوم اخرجنا من العدم الى هذا الوجود الاصم اردنا الوقوف بعد الموت على قرار ايما الى جنة ايما الى نار لما اهتدينا للمراد ولا علمنا ما الله بنا اراد لكن اقوال الدهريين في ذلك محض اقاويل ومجرد اباطيل ومن زعم انها ارحام تدفع وارض تبلع فقد طغى وبغى واشعل في الزندقة نار الوغى فان ايجاده تعالى لنا منزه عن الاضطرار وحاشا ان يعد مثابوجه الاحتقار وان يكون وجودنا في الارض لمجرد هوى نفساني أو رأى انساني فانه ليس في البحر من قطرة الا وفيها اشباح وحيوانات ذوات ارواح وكلها لنا مدخره ولمنافعنا مسخره وان ما في الكواكب من انوار وحركات وادوار ماخلق الا لمنافعنا من مشاجرنا وخزارعنا وجميع الخيرات الالهيه ومابرته القدرة الازليه فهو لخدمتنا مسخر ولولانا لما تقدم ولا تأخر لكنا مع هذا شم الانوف أذويا الكفوف لولا أن سلط الله علينا الضعف وحكم علينا بالخسف لطغينا فوق الارض وما اندفع البعض منا عن البعض

شعر

وهذه حكمة ولا حكيم ● وجل تقدير عزيز عليم

سل من الموت لنا صارما * فاصبحت ايامنا كالهشيم
ثم ابتلى الصالح من بيننا * بمقت عيش وعذاب أليم
واختاره لاشك من بعدذا * لنعم دار ونعيم مقيم

فورد جنة اذا فى دار السعاده ومنازل بها الحسنى وزياده لوذن لها بالخروج من مقام الاملاك ورخص لها فى ان تراك لكانت بلاشك تناجيك وتودعك وهى تناديك وتقول لك يافبول ان الحياة الدنيا دار بلا ومحل اختبار وابتلا وانى احسنت وفاء العهده واخلصت فى المودة وجبت البحار رضاء لخاطر اهلى ومارضيت بالغنى حفظا العهدى معك وقولى فهانت على الوفاء وتخلصت من قيد تلك الحياه والفيت نفسى فى برآئمه ومنيت بحسن الخاتمه وقدارانى الله على الدوام من تصرف الدهر وتقلب الايام وماعاد الفقر ولا السميمة يقتفيانى ولا ارى هول البحر ولا هول البحر يرانى وحالى لا يرثى اليه فلا تاسف يافبول عليه فانى صرت خالصة صافية مغمورة فى العفو والعافية لا يغيرنى مغير ولا يكدرنى مكدر كالنور الانور والسماء الازهر فلا تدعنى للرجوع الى ظلمة الحياه فانى فى حال كل من عليها يتمناه اتذكر يافبول تلك الايام الخاليه والاوقات الحاليه حيث كنا نقوم سويه فى اوقات الصبح الهنيه فنذوق لذة شروق الشمس على

رؤس الجبال وانتشار اشعتها على الغابات والرمال اما كان
يقوم بنا من ذلك هيام لا يكيف وطرب لا يحد ولا يوصف
وكنا من كثرة لهفنا وشدة شغفنا نود لو اننا عيون مبصره
لنتمتع بانوار الفجر وهي مسفره او اننا انوف ومناخر لنتطعى
بشم روايح الذيت الفاخر او كلنا مسامع متعدده لنفوز باستماع
الطير والمغرده او كلنا قلوب عامره لنقوم لله بشكر خيراته
الوافره فهار وحي الان على منبع نهر المحاسن الذي منه
تستمد الارض وما فيها من المساكن تذوق وتسمع وتمس
مباشره ما ليس الارض وما عليها ان تصل اليه الا بحواس غير
قادره وانى للقلب واللسان ان يقدرا على وصف هذه الجنان
أو يفصحا عما خلقه الله لتحلة الصابرين واعده لنهنئة كثير من
عباده الصالحين عما اراه كل لحظة يجلى على و يزاد بهجة بين
يدى فتعال يا قبول لما نابك واصبر يا اخى على ما اصابك لتفوز
هنالك بقربي وتتمتع على الدوام بحبي ثم ارضى عنك واتقرب
منك واطفئ ولوعك وامسح لك دموعك فهب نفسك لنفسي
يهن عليك المساعه وتحظى بوصلى الى ان تقوم الساعه

قال وكانت نهاية قولى ان أخذتنى حدة الكلام وأدركتنى شدة
الطرب والهيام فازهل عقلى وبهت وأمسك لسانى فسكت
واما قبول فانه احدق الى بعينيه وصاح وهو يضرب بيديه

وبقول

شعر

نفسي قدمني من حقا ● أي والله قدمني حقا

ثم انه أغمض عينيه وسقط على الارض مغشيا عليه ولما ان أفاق قال حيث ان ورد جنه هي الان في الجنه وان الموت هو الموصل اليها فلا بد ان أموت من الاسف عليها وكأن أقوالي التي ذكرتها وبراهيني التي أوردتها لم تنزل عنده بمكان ولم يتأثر منها بأي شئ كان وبقي حتى استولى عليه الحزن وتسلط الداء على البدن ولم يكن رأى مصيبة قبل اليوم كانت تنفعه وتزيل ما حدث به وتدفعه الا انه سلب القرار وعدم الاصطبار فبئست من حالته وذهبت به الى أمه وخالته ولما دخلت به وجدت أمه وأم حبيبته قد أودى بهما الهزال واضمحلا من الفم كل الاضمحلال فعلمت ان من كان في طبعه جده لا يقدر على ان يتحمل الشده

ثم قالت لي أمه انها رأت ورد جنه في المنام وانها في غاية من الترفه والانتظام وحولها الند والبان والاس والريحان وذكرت لها انها في خيرات يرحل اليها ولذات يحسد المرء عليها ثم دنت من قبول بابتسام وأخذته معها من غير كلام قالت فاردت ان أنزعه من يدها فارتفعت من الارض ولحقت

بها

بها وتبعتها وانا فرحه مبتهجة منشرحه فاردت ان اودع
امها فرأيتها على اثرى مقبله ورايت وراها مرجان مهرولا
ومريم مهروله واعجب من هذه الامور ان هذا المنام رأته
بعينه الست بدور فقلت لها خيرا ان شاء الله ولا يحصل
فى الكون شئ الا باذن الله ولما توجهت عند الست بدور قصت
على منامها مثله كانت رأته مع اقصوان فى ليله فدهشت من
توافق تلك الاحلام واذعنت بتجردها عن فاسد الاوهام
هذا والرأى عندى فى الحقيقه انى اعتقد فى المنام واثبت
تصديقه وقد أجمع سكان الارض على ان الحق يرى فى المنام
وأكبر الفلاسفة ومشاهير الرجال كانوا يعتقدون فى الاحلام
كالاسكندر وقيصر وفلاسفة اليونان وغيرهم من ملوك الرومان
ولا شك ان عقول هؤلاء كانت عظيمه وان اذواقهم كانت سليمه
ولقد شهدت الكتب السماوية بصحتها وصدقت بكلمتها
وأما أنا فلا حاجة لى لذكر دليل غير ما جربت فكم رؤيا رأيت
وعنها أعربت فعملت بوفوعها انها وحى للصالحين من رب
العالمين فمن أراد ان ينقض ذلك بدليله فقد سعى فى تضليله
واستحال عليه البيان وأغلق دونه باب الامكان لانا نقول
ان الرجل ان كان بعيدا عن دار أبيه أو افترق عن أخيه يمكنه
ان يطمئن خاطره بالمراسله أو بكاتبه فى أمر عن له فليس من

العجيب على صاحب القدرة والارادة ان يراسل بالاحلام عباده وهو لاشك منزه عن اتخاذ آلة محسوسة ينفذ بها ارادته فلا غرو ان كانت الرؤيا من بعض الانه هذا ولاى شئ نشك فى الاحلام مع ان الدنيا ليست الا كمنام لانها فانية والحلم فانى وأمورها واهية والمنام واهى وعلى كل فقد تحقق منام المرأتين ووقع مثل رؤيا العين اذ مات قبول بشهر بعد ورد جنه وجمعه الله بها فى الجنه وكان رحمه الله لا يزال يهتف بذكرها حتى دفنوه جنب قبرها ثم ماتت اقصوان بعدابنها بثمانية ايام وقابلت الموت بالابتسام وقالت وهى تودع الست بدور كلاما تاين له الصخور وتنشق له الافئدة والصدور

شعر

فى جنة الخلد يكون الملتقى * فانها دار النعيم والبقا
والموت لاشك امر حتمه * يطلبه العبد لمولاه لقا
والعيش ان كان فمآله الشقى * آخره لكل من تحققا
وان يكن محض ابتلا فكلنا * نطلبه عيشا قصيرا ضيقا

ولما تقطع حبل المائلين وتصرم قام الحاكم بامور مرجان ومريم فانهما صارا عديمى المنفعه بعد ان كانا فى الخدمة كاربعه ولم يعيشا زمانا طويلا بعد اسيادهما ومات الكلب جوعا من بعدهما فاخذت الست بدور فى منزلى وهى من الصبر

في مكان علي وكانت في اوائل المصيبة شديدة الاضطرار شريفة النفس عالية المقدار وطالما سألت قبول وجلدته وفوته بالقول وايدته وعلمت أمه اقعوان الى ان مات الاثنان ولم تعش بعدهم الا شهرا ثم ماتت غما وقهرا

واما خالتها فانها وقعت بعدها في شرك الندم وتكبلت في قيود السدم على ما فعلت معها ومع ابنتها من الامتهان وارتكبت فيهما امورا تخل بشرف الانسان فجعل الله لها في الدنيا بالعقاب وختم لها بالسوء والعذاب

وجعل قبر قبول مجاورا لقبر وردجنه وقبورا ميهما وخادميهما حواليهما وما وضعت عليهم برازخ من رخام ولا نقشت عليهم كلمات تليق باخلاقهم الكرام ومع ذلك فلا زال ذكرهم في قلوب من احسنوا اليهم مخلدا واسمهم في معالم الجزيرة محفوظا مفيدا كان ارواحهم التي نحات بالزهد في الدنيا لا تميل الى زخارف الاخرى وانه لو امكنهم ان يعيشوا في الارض بعد موتهم اورخص لهم ان يرجعوا الى بيتهم لما اختاروا الا منازل الفقراء والمساكين وانتجعوا معاكف المنقطعين ليسعوا في تسلية من اساءه الزمان وتقوية من عشى من الشبان وترغيب الناس في الخيرات الطيبة والمحصولات الصناعية وتنفير النساء والرجال من الانهماك في طلب الاموال

فيامعشر الشبان المتحابين وأهل الفتوة المؤتلفين ويأيها
الامهات المساكين ويا افرادها بين العائلتين اجمعين ان
هذه الاشجار التى كانت تظلكم وتلك العيون التى كانت
تجرى لكم والمعاكف التى كنتم عاكفين عليها والمخادع
التى كنتم ترتاحون اليها أصبحت على فقدكم باكية ومست
بعدكم موحشة خاليه فلا يستطيع أحد بعدكم ان يفلح ارضكم
أو يسكن بيتكم حتى ان معزكم نفرت وطيوركم فرت
وبساتينكم اقفرت وها انا بعدكم ذرفت ازاده واب عدم
أولاده وسايح فى الارض الى الابد لم يجتمع بعدكم فيها
على أحد

ولما ان ختم الشيخ بذلك القول نهنه قام وأخذ مرارته واستند
عليها وانتكى وتركنى وبكى وغادرنى ورمى نسيل
دموعى بكيت وهو يلتفت على هذا الحديث الجميل

وقد تم هذا الكتاب طبعا * وراق حسنا ورق طبعا
ومنه قد ازهرت رياض * شدا عليها الحمام سجعا

وذلك بالمطبعة الوطنيه بمصر المحميه فى اوائل الحجة سنة ١٢٨٨
من هجرة النبى عليه الصلاة والسلام وعلى آله واصحابه الكرام

اما بعد حمد الله على الائه والصلاة والسلام على ناظم عقد لوائه
فيقول الفقير محمد فدرى والد صاحب المطبعة التى تم بها احسن
طبع هذا الكتاب النفيس قد اطلعت على هذا الحديث
بلغة الفرنسيس فالفيته أحلى من الضرب وادعى من الالحان
الى الطرب جامعا لفنون الادب يشتفى به الغليل ويصح مزاج
العليل حديث يذكر العهود والموده ويطلع فى جنة الوفاء
ورده تدور بكؤس محاسنه الشمول وياخذه القلب بابتهاج
وقبول وقد ترجم الى جميع اللغات الاوربا ويه لما فيه من
الاداب والانواع البديعيه ولم أر له ترجمة عربيه احلى من
ترجمة نادرة دهره وغرة وجه عصره رفيق حواشى الطباع
طويل الباع فى فن الاختراع ناظم ما انتثر من المآثر ناشر لواء
المحامد والمفاخر جامع أوصاف الكمال محمد افندى عثمان
جلال حامل علم المجد الآن بديوان الجهاديه حائز قصب
السبق فى ترجمة الكتب العسكريه صاحب العيون اليواقظ
والحكم والمواعظ والتآليف العديده والتصانيف المفيده
ومبلغ القول فى هذا العلم الشهير انه غريب فى فضله ومجده وانه
أوتى من فنون الادب ملكا لا ينبغى لاحد من بعده ولاجل
الاطلاع على فضائله والوقوف على حميد شمائله أوردت
هنا رسالته التى اتحفنى بها راسما فيها نفسه وأوصافه الحسيه

والمعنو به وهى هذه

اتريدايها الاديب الاريب والالمعى اللبيب ان ارسم لك صورة بعض أحبابك وان ارسل اليك نسخة من أصل هو احد أصحابك اما ظاهر تلك الصورة فليس فيه شئ يأخذ وكما انه لا ينفر فكذلك لا يلذ يعرف كيف ينوع نفسه ولا يعرف كيف يروح به نفسه ؛ يتشكر لمن استحسنه تشكره للاحسان فان احرم منه ظلما سلى نفسه على ذلك الحرمان ان جلس مع من لا يريده سكت وان جالس محبا تكلم وتسكت ان تكلم عرف كيف للسكوت يلزم وان سكت عرف كيف يتكلم وان تكلم غيره اوسعه سمعا ووجد فيما يقوله نفعا فان رأى نقصا فى عقل المتكلم غض عنه مالم ير فى نفسه انه أعظم منه ظاهره خامل منهمد وباطنه مشتعل متوقد وهو على ما جبل عليه من الكسل والميل الى عدم العمل يرى فى نفسه منبع كثرما تعجب من غزارته ومستودعا طالما تحير من كثرته طبيعيه يشبه للفن وفنه يشبه للطبيعى وذلك لما فيه من استقامة المعنى وانتظامه وسهولة اللفظ ورقة انسجامه فان زيد على ما كتب كان غير لازم أو حذف منه لكان الحذف بغير جازم والحاصل ان صاحبك لو امكنه ان يعتاد على كثرة العمل وان ينجو من الغرق فى بحر الكسل وكانت حافظته لم تخنه بالغيب

لكان أحسن من ذلك ولكن لم يخل امرء من عيب

واما باطنه فاهلى لان يهدا اليك وان يقدم بين يديك فانه لا يريد ان يختص من الخير بنبله الا ليكون على مقدرة من فعله أو يقدر على جبر أحبابه فان صنعوا معه خيرا أتاهم بالشكر من بابه تكليفه الغير لنفسه يوجب ازعاجه فاذا احتاج لا يسأل الا نفسه الصبر على تلك الحاجه وهو على فصاحته عى عند السؤال يرى ان المجد المكتسب بالخسة ليس من شأن الرجال لا يحاج أحدا فى قوله ولا يملق احدا لطوله يتقن المدح ولا يمدح بجهله وما مدح احدا قط وكان فى غير أهله

وأما طمعه فليس مما يوجب التعب حتى يصل الى ما طلب بل اقتصاد فى الرزق لينال ما يستحق لا يقصد اقرب الطرق واسخفها بل ابعدها واشرفها فان احرم من أرزاقه كفاه ان الناس تعلم باستحقاقه بنال ذبما فيه من الشرف والعفه ولا يكدر غيره على ما يعتريه من فظاعة الكبر والانفه من رفع قدره تواضع له واطرق ومن وضعه تكبر وتمزق

شعر

الا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

عدد احبابه كعدد الاخلاء قليل لان وجود الخل يعد من المستحيل يكثر التحرى فى اختيارهم بعد طول اختبارهم لا يخشى

عليهم انقطاعا لعدم كثرتهم ولا يخاف فيهم ضياع نقلتهم ومتى قلوا كثر الحرص عليهم وحسن التودد اليهم فتراهم معهم تملا بغير مدام عاقلا بغير احتشام مؤلفا بغير فضول ولا تكلف منبسطا بغير سفه ولا تعسف وهذا هو عيش من يزداد مع محبيه سعه ويرجو ان يكون كذلك عيش محبيه معه